

المعرفة التاريخية عند عبد العزيز فيلاي (مستوى المبادئ العامة)

*Historical Knowledge at Abdul Aziz Filali
(General Principles Level)*

1- الطاهر بونابي*، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة (الجزائر)

bounabi_ttt@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021 /05/04 تاريخ القبول: 2021 /06/01 تاريخ النشر: 2021 /06/30

ملخص:

يعكس هذا البحث جملة المبادئ المنهجية والمعرفية العامة، التي احترفها الأستاذ عبد العزيز فيلاي في كتابته التاريخية، من جراء مخالطته للمدونة التاريخية العربية والإسلامية الوسيطة، والتي تتمثل في طرائق: إدراك مجرى التاريخ ذي الصلة بموضوع البحث والتحكم في المفاهيم العلمية والتاريخية وضبط معلم البدء والنهاية واستيعاب طريقة الشمول وحيثيات التتابع في التاريخ، فضلا على سلوك سبيل الموزانة والغاية والتجرد الإيجابي مع الركون إلى التعليل، مما مكنه من أن يقيم فوق صُروحها الأسس المعرفية الأخرى التي استوعبها من المدرستين المصرية والاسبانية خلال النصف الثاني من القرن العشرين، فضلا على الجوانب البنيوية واصطلاحاتها من مدرسة الحوليات الفرنسية خلال العقدين الأولين من القرن الواحد والعشرين، مما جعل تجربته في الكتابة التاريخية توصف بالمتينة.

كلمات مفتاحية: الكتابة التاريخية، المبادئ العامة، الأسس المنهجية، التصورات المعرفية، الدراسات الأدبية.

Abstract :

This research reflects the set of general methodological and cognitive principles that Professor Abdul Aziz Filali has mastered in his historical writing, as a result of his association with the Arabic and the intermediate Islamic historical blog , which is represented in the methods of: Perceiving the course of history related to the research topic and controlling the scientific and historical concepts, also setting the milestone of beginning and ending , comprehending the inclusion method and the sequence phases in history. As well as his taking to the balance path, purpose and positive abstraction with reliance on reasoning, which enabled him to establish over its own basics , another knowledgeable foundations that he absorbed from the two historical schools of Egypt and Spain during the second half of the twentieth century. In addition, his reliance on the structural aspects and its concepts from the French Annals School during the first two decades of the twenty-first century, made his experience in historical writing described as solid.

Keywords: Historical writing, General principles, Methodological foundations, Perceptions of knowledge, Literary studies

مقدمة:

يعتبر المؤرخ الجزائري عبد العزيز فيلالي¹، ظاهرة متميزة في الكتابة التاريخية، يعكس ذلك غزارة مؤلفاته وامتانة مضمونها التاريخي والمنهجي والمعرفي وتنوع موضوعاتها السياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية والأنثروبولوجية، مما جعلها محل عناية الباحثين والمهتمين. وحتى يمكن حصرها في سلسلة من الدراسات المنهجية والمعرفية والأدبية اللاتقة بها، فإنه من باب الأولويات السعي في اتجاه رصد مؤثرات هذه الكتابة عند مؤلفها أولا ثم التوصل إلى تصنيفها ثانيا كخطوة متقدمة من أجل دراستها، وهي تنتهي من حيث قوالها المنهجية وتصوراتها المعرفية إلى مرحلتين تاريخيتين من عمر الكتابة التاريخية العالمية، فهي في مرحلتها الأولى وثيقة الصلة بمميزات

¹ عبد العزيز فيلالي من مواليد 1944م، أستاذ التاريخ الاسلامي الوسيط بجامعة قسنطينة منذ 1971م، وينتمي إلى الجيل الجزائري الكُتوب الذي ارتقى بالكتابة التاريخية الجزائرية إلى المصاف المنهجي والمعرفي، إلى جانب أبو القاسم سعد الله وموسى لقبال وناصر الدين سعيدوني وأبو العيد دودو وجمال قنان وعبد الحميد حاجيات ويحيى بوعزيز وعبد الحميد زوزو ومولاي بلحميسي.

وخصائص الكتابة التاريخية العالمية والعربية في النصف الثاني من القرن العشرين، بينما في المرحلة الثانية تترأى لنا غضون العقدين الأولين من القرن الواحد والعشرين في خضم رياح العواصف المنهجية التي هبت على العالم العربي من شتى المدارس الأنجلوساكسونية والأوروبية و في مقدمتها مدرسة الحوليات الفرنسية التي نجح طرحها في تصورات المعرفة التاريخية في ممارسة اغراءاتها البنيوية على المؤرخين المغاربة والجزائريين منذ وقت مبكر¹.

ومن هنا تكون المسألة حول السياق والمؤثرات التي أدت إلى تموقع الكتابة التاريخية عند عبد العزيز فيلالي ضمن هاتين المرحلتين التاريخيتين من تطور الكتابة العالمية والعربية؟

¹ يعتبر الشريف الساحلي من الأصوات المغربية المبكرة الداعية إلى تحرير التاريخ من طرائق الكتابات الاستعمارية، وفي نفس الوقت من الداعين إلى الانفتاح على مدرسة الحوليات الفرنسية، من خلال كتابه تخليص التاريخ من الاستعمار 1965م وفيه دعا إلى الاعتناء بأعمال المؤرخ والمفكر الفرنسي لوسيان فيفر في مجال توسيع مساحة الشواهد المادية للتاريخ إلى كل ما تسمح به عبقرية المؤرخ باستعماله، أي الكلمات، الإشارات، المناظر، حبات القرميد، أشكال الحقول والنباتات الضارة، خسوفات القمر، وأطواق حيوانات الجرو دراسة الأحجار من طرف الجيولوجيين وتحليل السيوف المعدنية من طرف كيميائيين. تخليص التاريخ من الاستعمار، ترجمة محمد هناد و محمد الشريف بن دالي حسين، ط1، منشورات وزارة المجاهدين، 2002، ص108.

1-السياق والمؤثرات:

يكشف الطابع الميتودولوجي-التاريخي-وجملة المبادئ العامة في تصورات المعرفة التاريخية وكذلك الصورة الأدبية في ترجمة المفاهيم العلمية والتاريخية للموضوعات، والتي اعتمدها عبد العزيز فيلاي في منجزاته المبكرة وأعني في كتابيه العلاقات السياسية بين الدولة الأموية بالأندلس ودول المغرب سنة 1977م، والمظاهر الكبرى في عصر الولاة بالمغرب والأندلس سنة 1988م، عن نزوعه الملحوظ نحو صب موضوع قيد البحث في مجراه التاريخي العام، ثم اعتماد هذا المجرى وعاء للتعليل، وذلك من أجل المحافظة على الوحدة الموضوعية للبحث ضمن وحدة التاريخ، وهي الفكرة التي سادت روح التأليف في أوروبا في النصف الثاني من القرن العشرين وعمل بها إلى جانب المؤرخين، كذلك الفلاسفة والأدباء وعلماء اللاهوت في تعليل التاريخ وتفسيره¹.

وكونها من روح العصر حينذاك فقد ارتبط بها المفكرون من القوميين العرب وخصوصا أساتذة الجامعة الأمريكية ببيروت والنخبة العراقية المنبثقة من رحم الاستشراق البريطاني والألماني، فضلا على مواكبة المؤرخين المصريين لها في جامعتي القاهرة والاسكندرية، مما جعل هذه الجهود العربية تكمل بانجاز العديد من المؤلفات المبكرة في المنهج وتصورات المعرفة مثل: كتاب "نحن والتاريخ مطالب وتساؤلات في صناعة التأريخ وصنع التاريخ" لقسطنطين زريق سنة 1959م، والذي تفاعل مع أفكاره جيل من الباحثين في الجامعة الأمريكية ببيروت².

وكتاب "مصطلح التاريخ" لأسد رستم سنة 1955، في نقد الأصول وتحري الحقائق التاريخية وإيضاحها وعرضها وفيما يقابل ذلك في علم الحديث ، فكان توصله إلى أن الميتودولوجيا الغربية في عصره ليست غريبة على علم مصطلح الحديث، بل تمت إليه بصلة قوية وبالتالي فإنّ التاريخ في منظوره دراية أولا ثم رواية كما أن الحديث دراية ورواية³.

فضلا على استفادة النخب العراقية من محيط الاستشراق البريطاني العارف بخبايا التأريخ في الكتابات التاريخية العربية الإسلامية الوسيطة، ويأتي على رأس هؤلاء أحمد صالح العلي من خلال

¹ قسطنطين زريق: نحن والتاريخ (مطالب وتساؤلات في صناعة التأريخ وصنع التاريخ)، ط6، دار العلم للملايين، بيروت، 1985م، ص 140.

² من هؤلاء الباحثين الذين تفاعلوا مع أفكار هذا المؤلف: ألبرت بدر، جبرائيل جبور، شقيق جحا، محمد توفيق، زين الدين زين، جورج طعمة، أمين فارس، فؤاد صروت، ومحمد يوسف نجم.

قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، ص ص8، 9.

³ المطبعة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 2002، ص12 وما بعدها.

عمله الرصين حول "التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية في البصرة في القرن الأول الهجري"¹ تحت إشراف هملتون جب، ونزوعه بعد ذلك إلى الكتابة في تواريخ جزئية لا تخطر على البال في وقتها، وأعي كتابته في "تاريخ الألوان في الحضارة العربية الإسلامية"².

وعلى دربه وُفّقَ عبد العزيز الدوري مستفيدا من هملتون جب وبرناد لويس ومينورسكي أيضا في انجاز أطروحته في "تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري" بين 1940-1942م³، فكان ذلك بداية التأسيس لحقل جديد من حقول التأريخ⁴، في الكتابة التاريخية العربية، غير أن أهمية هذه الدراسات تكمن في أصالتها من حيث اعتمادها لغة المصادر العربية والإسلامية واصطلاحاتها في الموضوعات، وكذلك تبنيها لتصورات المؤرخين المسلمين في مبادئ: النقد، والشمول، والجغرافيا التاريخية، على خطى الطبري، والمسعودي⁵، وهي الحقول ذاتها التي كان عبد العزيز فيلالي مشدودا إليها.

ناهيك على ترجمتهم لأعمال المستشرقين الانجليز والألمان التي كتبها أصحابها في دراسة التأريخ عند العرب والمسلمين ويأتي في هذا الباب ترجمة أحمد صالح العلي لكتاب "علم التأريخ عند المسلمين" للمستشرق الألماني فرانز روزنتال 1914-2002م، وما تضمنه هذا الكتاب من قضايا منهجية ومعرفية تخص مدرسة التأريخ العربي والإسلامي في العصر الوسيط، خصوصا في باب المبادئ العامة في التأريخ والتي استنبطها روزنتال من صميم المدونة التاريخية الإسلامية الوسيطة للقرون الخمسة

¹ طبع في دار الطليعة في بيروت 1969م.

² نشر هذا النوع من التأريخ في دراستين تحت عنوان: الألوان في الحضارة العربية في العهود الإسلامية الأولى، مجلة المجمع العلمي العراقي الأولى، عدد 26، سنة 1976م، والثانية في العدد 27، سنة 1976.

³ تم تعريب هذه الأطروحة من طرف عبد العزيز الدوري، ونشرتها مطبعة المعارف ببغداد سنة 1948م.

⁴ وجيه الكوثراني: تاريخ التأريخ (اتجاهات، مدارس، مناهج)، ط1، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدار العربية للعلوم ناشرون، الدوحة، قطر، 2012م، ص278.

⁵ من هذه النماذج أن عبد العزيز الدوري استهل أطروحته في الدكتوراه بفصل حدد فيه العوامل الجغرافية والتركيب الانثولوجي للسكان وأثرهما في تاريخ العراق، مقتبسا هذا المنهج من إدراج المسعودي للجغرافيا التاريخية والبشرية في موجه. تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط5، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، صص 19-38.

الأولى للهجرة¹ ولا عجب أن صارت هذه المبادئ العامة من روح الكتابة التاريخية في النصف الثاني من القرن العشرين عند الأوربيين أنفسهم ، و الذين اقتبسوها عن الكتابة التاريخية الإغريقية ثم طوروها .

وقد تأثر بكتاب روزنتال وأفكاره في جامعة الاسكندرية الدكتور عبد العزيز سالم ونحل من بنيته ومضمونه كتابه في "التاريخ والمؤرخون العرب" وحدد من خلاله أهمية المدونات التاريخية الإسلامية في الارتقاء بالباحث إلى الكتابة التاريخية قوله: "إنّ معظم المصنفات التاريخية والجغرافية والأدبية هي موسوعات في التأريخ والأدب والعلوم الإسلامية بوجه عامة. وتعتبر ذخيرة طيبة للباحث في علم التاريخ عند العرب"² .

وهنا يحسن التذكير بأنّ عبد العزيز فيلاي قد تلقى هذا الكتاب عن شيخه عبد العزيز سالم في فترة متابعته للدراسات العليا بجامعة الاسكندرية 1973-1977م، كون هذا الكتاب صار حينذاك من مقررات التدريس لطلبة الدراسات العليا بقسم التاريخ، لذلك توصل به مؤرخنا واستوعب مضامينه وكان من بين المؤلفات التي أعانته في كيفية اكتساب أدوات صناعة التأريخ و تصوراته من مادة المدونات التاريخية الإسلامية وفي مقدمتها صنف مصادر التاريخ العالمي حيث تقبع المبادئ العامة في التأريخ .

ولم يكن التأثير في هذا المستوى وحسب، كون عبد العزيز سالم كان كذلك ،صاحب الخبرة في قراءة القيم الجمالية من الآثار والفنون الإسلامية³ والمبرز في فكرة التخطيط للعمران في العصر الوسيط⁴ وكذلك المبدع في تاريخ المدينة الإسلامية المشرقية والأندلسية، وما يرتبط بها من أشكال

¹ صدر كتاب علم التأريخ عند المسلمين لفرانز روزنتال، بداربريل، 1968م، رضوان السيد، تقديم: ضمن كتاب علم التأريخ عند المسلمين، ترجمة: أحمد الصالح العلي، ط1، دار المدار الاسلامي، بيروت، 2017، ص7.

² التاريخ والمؤرخون العرب، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 2008، ص ص4-5.

³ من مؤلفاته في هذا النوع من التاريخ: القيم الجمالية في الفن الاسلامي، منشورات جامعة بيروت العربية، 1962م.

⁴ وضح عبد العزيز سالم هذه الفكرة في دراستين هما: التخطيط ومظاهر العمران في العصور الوسطى، مجلة المجلة، العدد9، سبتمبر 1957م؛ تخطيط مدينة الاسكندرية وعمرانها في العصر الاسلامي، بيروت، 1964م.

التكاثر الثقافي والفكري في سياق من الصراعات العسكرية والسياسية الداخلية والخارجية، و التي كان يهتم بها كذلك من زوايا رصد أثرها في العمران والمجتمع¹.

مما كان لذلك أثره على عبد العزيز فيلالي في دراسة تواريخ المدن وعمرانها وما اختصت به من جوانب فكرية وثقافية وأحوال سياسية واقتصادية، كما جاء باديا في كتاباته حول مدينة قسنطينة ومدينة ميلة ومدينة تلمسان (دراسة عمرانية وسياسية واقتصادية وفكرية)، وبالتالي يكون شيخه عبد العزيز سالم ملهمه في التواريخ المحلية للمدن، لكن الاختلاف بين العزيرين أن عزيز الاسكندرية كان يتجاوز بسرعة التاريخ السياسي ليستفيض في دراسة الجوانب الحضارية للمدن ولا سيما منها الفكرية والفنية²، بينما عزيز قسنطينة يؤثر الغوص في التاريخ السياسي لحد التفاصيل معتبرا السياسية وعواملها المحرك لنشاط وتطور المنجزات العمرانية والفكرية والثقافية والاقتصادية وذلك مرده إلى تجربته العميقة في رصد التجربة السياسية عند سلاطين بني زيان وبني حفص وبني مرين من خلال دورهم في بناء حضارة المغرب الإسلامي.

وإلى جانب ذلك نجده في هذه الفترة كذلك من دراساته العليا بجامعة الاسكندرية مرتبطا بكوكبة من الأساتذة الاسكندرانيين المختصين في الدراسات الأندلسية والمغربية، وهم: سعد زغلول عبد الحميد، وعبد الحميد العبادي، وعمر توفيق كمال، ومحمد موسى الشيخ، وكلهم استفاد من تجاربهم في البحث التاريخي ومن تأليفهم الغزيرة، غير أن استفادته كانت أكبر على يد أستاذه المشرف على أطروحته في الماجستير الدكتور أحمد مختار العبادي العائد من أوروبا إلى جامعة الاسكندرية بحمولة من المعارف والمناهج في الدراسات الأندلسية كان تلقاها باسبانيا، مما مكن عبد العزيز فيلالي من أن يستفيد من تحقيقاته الدقيقة في التراث الأندلسي والدراسات العلمية عامة في تاريخ الغرب الإسلامي³.

¹ كتب عبد العزيز سالم في تواريخ مدن كل من الاسكندرية وصيدا وقرطبة والمرية. تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الوسيط، دار المعارف، الاسكندرية، ط1، 1960م؛ تاريخ صيدا في العصر الاسلامي، منشورات جامعة بيروت، 1972؛ قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس، بيروت، 1969م.

² سحر عبد العزيز سالم: القيم الجمالية في ففكر عبد العزيز سالم، رؤية تحليلية ضمن صفحات تاريخية اسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 2013، ص499.

³ من أبرز مؤلفاته في تاريخ الغرب الإسلامي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية؛ تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، لبنان، 1969؛

فضلا على دراساته النقدية والتحليلية للمصادر الأندلسية والمغربية¹ وفي مقارنتها بكتابات المؤرخين الاسبان²، فكانت هذه التجربة الثرية عميقة الأثر في تكوين شخصية عبد العزيز فيلالي العلمية في الدراسات الأندلسية والمغربية، ولعلّ تجلياتها كانت واضحة في أطروحته العلاقات السياسية بين الدولة الأموية بالأندلس ودول المغرب في مستويات التحكم في الأدوات الميتودولوجية ودقة المقارنة والرؤية النقدية التحليلية لمدونة تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط .

ولم تكن تجربة جامعة الاسكندرية بالرافد المنهجي والمعرفي الوحيد المشكل لتجربة عبد العزيز فيلالي، وإنما كذلك نجده في المرحلة الثانية أي خلال العقدين الأولين من القرن العشرين يفتح على مناهج وطرائق الكتابة التاريخية الأوروبية، والتي كان قد توصل بها في أثناء انتدابه العلمي بفرنسا 1983م-1986م، أين سجل تسجيله الثاني لأطروحته في الدكتوراه الموسومة: بتلمسان في العهد الزياني دراسة سياسية وعمرانية واجتماعية وثقافية، بأكس أبروفانس بإشراف المستشرق الفرنسي Garcin الذي كان صاحب خبرة في تاريخ المدن³ كونه أنجز أطروحته في الدكتوراه حول مدينة قُوص المصرية وبالتالي يعد ذلك اختيارا موفقا من جانب عبد العزيز فيلالي في الاستفادة من هذه التجربة، كما أن ارتياده للمكتبة الوطنية بباريس ومعهد الدراسات الشرقية وحضوره مجالس مناقشة الأطاريح الجامعية قد أكسبه طرائق البحث التي اختصت بها الكتابة التاريخية بفرنسا آنذاك، والتي تدارك توظيفها ضمن كتابته في أنساق الثقافة التاريخية التي اطلع بها في هذه المرحلة الثانية ، وبالتالي يكون قد مزج حقا بين مؤثرات الكتابة التاريخية المصرية في بعد إنتمائها إلى المدرسة الانجلوسكسونية وكذلك طرائق البحث التي استوعبها من تجربته في البحث بفرنسا⁴.

وكذلك كتاباته في التاريخ العباسي والأندلسي والتاريخ العباسي الفاطمي والتاريخ الأيوبي وتاريخ المماليك وكلها دراسات نشرت بدار النهضة العربية، بيروت، بين 1971-1995م.

¹ حقق مختار أحمد العبادي عديد المصادر الأندلسية: أعمال الأعمال لابن الخطيب، وكتاب تاريخ

الأندلس لابن الكردبوس، ووصفه لابن الشباط، نسان جديان. معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971م.

² عبد العزيز فيلالي: تاريخ الغرب الإسلامي، دراسة تحليلية لمصادره ومؤرخيه، منشورات مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة قسنطينة، 2019، ص ص89، 90، 91، 92.

³ حول هذه التجربة أنظر. مذكراته مسار ومسارات حقائق وأسرار. قيد الطبع.

⁴ عبد العزيز فيلالي: تاريخ الغرب الاسلامي، دراسة تحليلية لمصادره ومؤرخيه، ص99.

وهذه المؤثرات جميعها هي التي كانت خلف كتابته الغزيرة في الموضوعات التاريخية والتي لا يمكن قراءتها بصورة منهجية ومعرفية صحيحة، إلا من خلال تصنيفها ضمن الحقول التاريخية التي تنتمي إليها.

2- تصنيف الكتابة التاريخية عند عبد العزيز فيلالي:

تتمفصل الكتابة التاريخية عند عبد العزيز فيلالي إلى نوعين: كتابة علمية طابعها التأريخ بالهمز، يسكنها المنهج وتصورات المعرفة ومغلقة بصور التعبير الأدبي التي استعملها في عرضه للمادة التاريخية، ويخص هذا الطابع:

أ- كتابته في حقول التواريخ الوسيطة، حيث يعتبر تصنيف أنواعها على ضوء حصر موضوعاتها وإدراك قوالها المنهجية والمعرفية، المسلك الصحيح لعملية التصنيف بصرف النظر عن عناوينها المعهودة التي نشرت بها، فنعتز على الموضوعات ذات الطابع الواحد مدرجة مثلا في التاريخ المحلي وهي من جنس التاريخ الثقافي والحضاري، وأخرى من هذا الصنف غير أنها مودعة في التاريخ السياسي، ويعزى ذلك إلى طريقته في الوحدة العضوية للأحداث التي تتفاعل فيها مختلف عناصر الأحداث وتتكامل في علاقات متينة هي كلها آتية من وحدة الحياة عنده والتي تأبى عناصرها المتشابكة التجزؤ وبالتالي ليس التأريخ عنده تواريخ خاصة سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية وفكرية، بل وحدة عضوية من وحدة الحياة البشرية في وحدتها المتعددة المظاهر¹، أضف إلى ذلك جملة الأسباب المتعلقة بالضوابط المنهجية الصارمة التي فرضت عليه في الدراسات الأكاديمية، والطرق المتبعة في إنجازها وكل ما يحيط بظروف التأليف وشجونه العلمية وغاياته الخفية والظاهرة.

ومن هنا فإنّ الخوض في تصنيفها من زوايا الرصد والتراتب لا يساعد على التوصل إلى تقييم هذه المساهمة الكبيرة أو تحديد المكانة اللائقة بمؤلفها كمؤرخ فذ، لذلك رأيت أن المسلك الموضوعاتي والمنهجي هو الكفيل بتصنيف أنواع التواريخ الوسيطة التي كتب فيها، فوجدتها تتفرع إلى التاريخ السياسي² للدول والقبائل والجماعات الدينية وهي من وحي فقهه لمذونات التاريخ الإسلامي العالمية -

¹ حول مفهوم الوحدة العضوية للتأريخ، أنظر: أرلوند توينبي: الفكر التاريخي عند الاغريق من هومر إلى هرقليس، ترجمة: لامعي المطيعي، ومراجعة: محمد صقر خفاجة، المكتبة الانجلومصرية، 1966م، ص56.

² من كتاباته في التاريخ السياسي:

-العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1982م.

الكونية- والإقليمية وخصوصا تلك التي كتبها المؤرخون المسلمون في القرون الثالث والرابع والخامس الهجرية/9-10-11 الميلادية والتميزة بمكنوناتها في الشمول¹ والتتابع ووحدة التاريخ وطول النفس ودقة النظام وسعة الادراك، لذلك كان هذا النوع من المصادر الأساسية التي أكسبته المبادئ العامة في المعرفة التاريخية. ولغة التاريخ الوسيط حيث تصبح وظيفته كمؤرخ حيالها "تحقيق العبارات التي قيلت بالفعل مهما كانت هذه العبارات"².

ثمّ يليه تاريخ المدينة³ وهو استمرار للتواريخ المحلية في كلّ أزمنة الحضارة الإسلامية وتعبيرا أدبيا محببا عن شعور الجماعة وتجسيدها للرباط الوثيق الذي يربط الناس بمواطنهم⁴، ونظرا

-المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، 1992م.
-تلمسان في العهد الزياني، دراسة سياسية عمرانية اجتماعية وثقافية، جزاءن، دار موفم للنشر، الجزائر، 2011.

¹ عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 2008م، ص99.
² تتجلى هذه الفكرة بوضوح عند المؤرخ الاغريقي بوليبيوس 230ق م، 120ق م الذي يعتبر وظيفة المؤرخ الأولى في تحقيق عبارات التاريخ كما قيلت ثم يأتي تحري السبب الذي يتوج الحدث في المقام الثاني. أرنولد توينبي: الفكر عند الاغريق، ص173.

³ من مؤلفاته في التاريخ المحلي:

-مدينة قسنطينة (تاريخ، معالم، حضارة)، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2007م؛ وقد قام بتطوير هذا الكتاب وتوسيع أوعيته في كتابه: مجمل تاريخ قسنطينة (السياسي، العمراني، الثقافي، الاقتصادي)، ط1، منشورات دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2017.

-مدينة ميلة في العصر الوسيط، ألفه بالاشتراك مع الأستاذ القدير إبراهيم بحاز، منشورات دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2017.

--تلمسان في العهد الزياني، دراسة سياسية عمرانية اجتماعية وثقافية، جزاءن، دار موفم للنشر، الجزائر، 2011.

⁴ فرانز روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة: صالح أحمد العلي، ط1، دار المدار الاسلامي، بيروت، 2017م، ص195.

لأهميته دعا الأقدمون إلى الاهتمام به والكتابة فيه قبل أي اعتبار آخر¹، لذلك كان هذا النوع مُفجرا لأحاسيس مؤرخنا في مستويات الارتباط ببيئته ودقة الأحداث وتنوعها.

ولما كان شغفه بنوع التاريخ الثقافي والحضاري من صميم نواذعه وتكوينه فإنه قد طرقه من مناحي الحياة الاجتماعية بتحولاتها الدينية وانجازاتها في العلوم النقلية والعقلية، ضمن أنساق من الانجازات العمرانية، خص بها عهود التاريخ الثقافي الوسيط بالغرب الإسلامي وخصوصا العصر الزباني والحفصي².

كما ينهض اسهامه في نوع تاريخ الكتابة التاريخية بالغرب الإسلامي³ شاهدا على استثماره لخبرته في التعامل مع المصنفات المصدرية للغرب الإسلامي، في تقديم دراسة منهجية في طرائق الكتابة التاريخية، جاءت مشفوعة بمنظور رصين حول مساهمة المستكشفين الإسبان لتراث الغرب الإسلامي وامتداداتهم في جيل المؤرخين العرب من المشاركة والمغاربة⁴.

ويحسن التنبيه إلى أن فهم هذه الأنواع من التواريخ الوسيطة عنده، لا يتم إلا في نطاق تواريخ الغرب والشرق الإسلاميين وعلاقتها المتوسطة، فضلا على النطاق الواسع للثقافة الإسلامية من قرطبة إلى اصفهان.

¹ عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ص104، 105.

² ضمن عبد العزيز فيلالي مظاهر التاريخ الثقافي والحضاري كذلك في تواريخ المدن التي سبق ذكرها، وأضاف إلى ذلك عديد الدراسات في هذا الشأن منها:

-دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، 2012م.

-بحوث في تاريخ المغرب الأوسط، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، 2014م.

-المعتمد بن عباد (الشاعر ومحنته وصداه في الشعر والغناء)، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، 2014م.

-اندماج اليهود في الشعر والموسيقى الأندلسية من اشبيلية إلى قسنطينة، منشورات مؤسسة عبد الحميد بن باديس، ط1، دار الهدى للنشر، عين مليلة، الجزائر، 2016.

³ تاريخ الغرب الإسلامي، دراسة تحليلية لمصادره ومؤرخيه، منشورات مخبر البحوث والدراسات في حضارة الغرب الإسلامي، جامعة قسنطينة عبد الحميد مهري، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر، 2019.

⁴ نفسه، ص102.

بينما يندرج النوع الثاني من كتابته التاريخية في:

ب- مسارات الثقافة التاريخية ومميزاتها المنعكسة عنده في جوانب سلامة النظر واعتدال الحكم وخصوبة الملكة العقلية ودقة البواعث النفسية والفضائل الخلقية التي طبعت شخصيته¹، وذلك لتقديره بأهميتها وأثرها في الفكر والنفس في سبيل ادراك الذات وتحقيق الغايات الدينية والقومية والوطنية والانسانية، وهي أصناف عديدة تجلت عنده في:

"كتابة استكشافية" مشفوعة بالوثائق الدفينة والتحقيقات الرصينة ويصب اهتمامه فيها بما تعلق بالحركة الاصلاحية الجزائرية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين والثورة التحريرية 1954م - 1962م²، غير أن النصيب الأوفر في هذا التاريخ الاستكشافي يتعلق بتاريخ عبد الحميد بن باديس وأدواره في العلم والتربية والتعليم والثقافة والفكر والاجتماع والاصلاح والسياسة³.

ناهيك على بصمته في نوع "التاريخ المحلي للمجالات الريفية" أثناء الثورة التحريرية الكبرى 1954-1962م، كونه العمود الفقري للتاريخ الوطني الجزائري وحجره الأساس نظرا لما يخترنه في البيئة الريفية من آثار للشعوب والدول التي تعاقبت على حكمه لم يطلها البحث الأثري ولم ينلها التحقيق الصحفي في رسالتها المنوطة بها نحو الجزائر العميقة، ومن هذا المنطلق أدرك عبد العزيز فيلالي حقيقة الفراغ في هذا النوع من التاريخ لذلك تناوله عبر مراحل التاريخ في العهود القديمة والوسيلة

¹ حول مميزات الثقافة التاريخية من الناحية النظرية والعلمية وكذلك الغايات التي تستهدفها أنظر:

-قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، ص ص158-165.

² يندرج في هذا الاطار كتابته: موقف القادة الفرنسيين من الثورة التحريرية ورد فعلهم بين 1954 -

1956م، منشورات مؤسسة عبد الحميد بن باديس، ط1، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2018.

³ حملت مؤلفاته في هذا الاتجاه خصائص الاستكشاف والتحقيق وهي:

-وثائق جديدة من جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، (دراسة وتحقيق)، ط1، دار الهدى

للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، 2012م.

-السياسة والقضاء عن المكي بن باديس وابنه حميدة، (دراسة وتحقيق وتعليق)، ط1، درا الهدى

للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، 2014م.

-الشيخ عبد الحميد بن باديس ووعيه بالاستعمار وبالثقافة الغربية من خلال أرشيف الاستخبارات

الفرنسية، ط1، منشورات مؤسسة عبد الحميد بن باديس، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر، عين

مليلة، الجزائر، 2016م.

والحديث، وطرق من خلالها جوانب السياسة والمجتمع والثقافة وما يتبع ذلك من حفر في البنى الاجتماعية والأنثروبولوجية، رغبة منه في تحقيق الاصابة أيضا في جانب دقيق من "تاريخ الذهنيات" ونظرا لما يكتسبه ارتباط المؤرخ بالتاريخ المحلي من أهمية، لكونه الشاهد المعاصر لهذه الأحداث في المجال الريفي الذي نشأ فيه، فإنه طرح في سياق ذلك نقطة أعمق تتعلق بالدور الموضوعي للمؤرخ في نقل الحقائق من هذه المجالات كما شاهدها والتأسيس على ضوء ذلك لملامح كتابة تاريخية جزائرية في هذا النوع من تاريخ المجالات الريفية¹.

وكذلك يمت كتابه حول مذكراته الشخصية في جوانبه إلى نوع من التاريخ الشخصي والمحلي والوطني لمؤرخ عاش في المجالين الريفي والحضري أي عاصر الثورة التحريرية وعقود الدولة الجزائرية الوطنية، وكان في أحداثها فاعلا من منطلق كونه أستاذا في جامعة قسنطينة ونائبا بمجلسها البلدي ثم رئيسا للجامعة ونائبا بالبرلمان وعضوا لدى المحكمة العليا، مما مكنه من أن يجسد المراحل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلمية التي عرفتها الجزائر من يوم استقلالها 1962م إلى سقوط حكم الرئيس بوتفليقة 2019م من زوايا نظر مؤرخ خبير واسع النظر².

غير أن هذه المنجزات في هذا النوع من "مسارات الثقافة التاريخية" يتطلب إلى جانب الاطار المنهجي والمعرفي الدقيق، كذلك مناخا ثقافيا وسياسيا خصبا تسوده الحرية والتنوير، حينها فقط يمكن لهذه الثقافة التاريخية أن تدرك الغايات المنوطة بها وفي مقدمتها تحرير التاريخ الجزائري من أحكام وثائق الأرشيف الأجنبي.

وخلاصة هذا التصنيف أن الكتابة التاريخية التي بدأها عبد العزيز فيلالي من حقول التواريخ الكونية الوسيطة وحولتها المنهجية والمعرفية المتينة وانتهت به إلى مسارات الثقافة التاريخية وفنونها في التاريخ المحلي للمجالات الريفية والمذكرات الشخصية، تنطوي على عديد التواريخ، لكل نوع منها مناهجه الخاصة وتصورات المعرفة في النظرية التاريخية وعلومه التي يفسرها فضلا على ما تتطلبه من قراءة للنواحي الأدبية في مستوى لغة التاريخ ومحيطاتها وكل ذلك جعله مشروعاً واسعاً في طرائق التأريخ وعلومه وتفرعات موضوعاته وغاياتها المتنوعة.

وإذا كان من تسطير للأولويات في دراستها فإنّ طريقته في المبادئ العامة للتأريخ تهض على رأس هذه القضايا المعرفية ، لما لها من أهمية في مستوى قراءة كتابته التاريخية في صورة الوحدة

¹ عبد العزيز فيلالي: المجال التاريخي لبلاد أمية من قطارة إلى الميلية ومساهمة مشاتها ودواويرها في

الثورة التحريرية، ط1، دار الهدى للنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2019، ص ص7، 8، 9.

² حول المشارب المختلفة والقضايا المتنوعة التي تناولها في هذا النوع من التاريخ أنظر: كتابه قيد

الطبع: مسار ومسارات وحقائق وأسرار.

والشمول بينما تؤخذ الأصناف التاريخية الأخرى بالبحث من طرف الدارسين بأدوات اليوم من طرائق الحفر في البنى وتعقب التفاصيل والجزئيات، وتلك دروب أخرى ضمها عبد العزيز فيلالي أكثر في الأنواع الخاصة بمسارات الثقافة التاريخية.

ولكن لماذا هذه الأولوية؟ وهل كتب بها عبد العزيز فيلالي كلّ الموضوعات التاريخية طالما أنّها مبادئ عامة؟ أو أنّها تصلح لموضوعات تاريخية بعينها كالتى ترتبط بوحدة التواريخ العالمية؟ وهل من تميز يحسب لعبد العزيز فيلالي من حيث خصوصية تحكمه في طرائق المبادئ العامة للتأريخ؟

3- مستوى المبادئ العامة:

هي طرائق في كتابة التأريخ توصل بها القدماء من المؤرخين الإغريق والرومان والمسلمين الذين كتبوا في تواريخ الامبراطوريات التي عاصروها، وهي ليست بالسهلة أو المتاحة كونها متعلقة إلى جانب موضوع التاريخ بثقافة المؤرخ وحضارة عصره ومنازعه وميولاته أي طبقات من القراءة فوق طبقات يقطعها الباحث المدرك في نصوص التواريخ العالمية أو الكونية، فيحصل له منها بالممارسة اكتساب المبادئ العامة في مستويات: إدراك مجرى التاريخ ذي الصلة بموضوع بحثه والتحكم في المفاهيم العلمية والتاريخية وضبط معلمي البدء والنهاية، واستيعاب طريقة الشمول وحيثيات التتابع في التاريخ، فضلا على سلوك سبيل الموازنة والغاية والتجرد الايجابي مع الركون إلى التعليل، وكل ذلك منوط بمؤرخ يؤمن بأنّ صنعة التاريخ قائمة على "الدأب المستمر العنيد الذي لا يهرول ولا يفتن والذي يضحى بالنتيجة اليسيرة في سبيل ما هو أرسخ وأبقى وأكثر جدوى في المدى البعيد"¹.

وهي جملة الخصال العلمية التي اكتسبها عبد العزيز فيلالي من انجازه الأول في رسالة الماجستير حول موضوع العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس والمغرب، والذي سمح له بأنّ يخزن حمولة المبادئ العامة من ملامسته للأصول في التاريخ العالمي الإسلامي، لكن تطبيقه لها قد أظهره، بشكل لافت في ثنايا كتابه المظاهر الكبرى في عصر الولاة بالمغرب والأندلس، لذلك أرجح أن زخم حمولة المبادئ العامة الذي تكون لديه في انجازه الأول قد جسده في كتابه المظاهر الكبرى أين وجد نفسه في أول تجربة للتأليف أكثر حرية خارج التزامات البحث الأكاديمي وشروطه في ضبط بنية البحث وترتيب معلوماته، بينما اتخذ عمله الأكاديمي في أطروحته العلاقات السياسية بين الدولة الأموية ودول المغرب صفة التاريخانية ومن هذه الاختيارات رأيت اعتماد نص المظاهر الكبرى في قراءة مسألة توظيفه للمبادئ العامة في التأريخ والتي بدت لي من خلال هذه المستويات متفرعة إلى:

¹ قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، ص 91.

1-3- مجرى تاريخ عصر الولاة:

يُعد الحديث عن طبيعة المنهج التاريخي الذي اعتمده عبد العزيز فيلالي في نص المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس (96هـ-138هـ) مسألة سابقة لفكرة فحص طبيعة الموضوع وامتداداته في الملل الإسلامية والنزعات البدوية الكامنة في عصبية القبائل العربية التي كانت طبيعتها منافية لملك منظم وإمبراطورية تستند إلى نظرية الخلافة في الحكم، وكذلك سابقة أيضا لفكرة نطاقات الموضوع ضمن جغرافيا تاريخية وتنوع ثقافي يمتد على محور الحجاز والشام والعراق وبلاد المغرب والأندلس مما يطرح مشكلة خاصة "لا تحل إلا بمنهج خاص يُوضح لها تبعاً لطبيعة وقائعها والصعوبات التي تثيرها"¹.

وهذا ما تفتن إليه عبد العزيز فيلالي حين اعتبر موضوع بحثه "عسيرا" وخاصة في هذه الفترة "لتداخل أحداثها وتشابكها وتنوع تياراتها وتفرع شعبيها، وعدم وضوح صورتها وقلة مادتها وتأثيرها في كتب ومدونات متفرقة وبسبب فقدان المصادر التاريخية الأصيلة المعاصرة للفترة المدروسة"². لذلك لا ينكشف الطابع التحضيري لثورات الخوارج 122-124هـ، رغم عنفوانها وظل مختفيا، وكذلك بعدها الاجتماعي أيضا مغيبا، وليس من رصد تأسيسي لمظاهرها الكبرى سوى نصوص يتيمة أو متناثرة وحسبنا نص يتيم انفرد به أبو جعفر محمد الطبري (ت310هـ/922م) يعرض من خلاله شكوى أهل المغرب إلى الخليفة هشام بن عبد الملك (105-125هـ/724-743م) أو نصوصا أخرى حول النزاع القيسي واليميني الذي تمسك به العرب وحملوه إلى بلادهم الجديدة من خراسان شرقا إلى الأندلس غربا ولكنهم عجزوا من أن يصهروها في رابطة أوسع وأمتن على حد منظور قسطنطين زريق³. متمثلة في الدولة أو الخلافة، أو ما يمكن كذلك أن نستشفه من روايات الحروب التي خاضها البربر بقيادة رؤوس الخوارج والتي لم تحض بعناية عبد العزيز فيلالي لقوله: "ولا أريد هنا أن أتعرض لتفاصيل هذه الثورة"⁴، كونه اكتفى برصد نطاقها الجغرافي والقبلي من برقة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ومن صحراء فزان إلى المغرب الأقصى جنوبا"⁵، وأحال القارئ إلى سياقها الحربي عند ابن عبد الحكم المصري ت257هـ/871م من كتابه "فتوح افريقية والأندلس"، وربما لدرايته بأن

¹ غوستاف لانسون: منهج البحث في تاريخ الآداب، ترجمة: محمد مندور، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2015م، ص54.

² المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس، ص10.

³ نحن والتاريخ، ص214.

⁴ المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس، ص56.

⁵ نفسه، ص56، ص57.

التفاصيل الحربية حول هذه الثورات هي من نوع الأخبار القليلة التي لا تفي بالغرض إلا ما أتى في سياقها، وهنا نجده يشاطر عبد الله العروبي حول حقيقة هذا الفراغ في المصادر العربية¹.

ومن هذه العوائق أدرك عبد العزيز فيلالي أن قوالب التاريخانية بأدوات التحقيق والنقد والمقارنة لا يمكن أن يعوّل عليها في تحقيق الوحدة للموضوع، لأن طبيعته منافية لها وأن ذلك حتما سيقود إلى نفي الرواية اليتيمة الشاهدة أو الشك في صحتها، وذلك لا يعد من صنعة المؤرخ المتمرس الذي يقدم على وأد الرواية الشاهدة الوحيدة والفريدة مما يعني "أنه لا توجد هناك مبادئ تصلح لكل شيء وإنما هناك مبادئ عامة" وفق منظور غوستاف لانسون (1857-1934م)²، تلك المبادئ التي مارسها المؤرخون الكبار في الموضوعات التاريخية المنتمية إلى صنف التاريخ العالمي-الكوني-للدول والإمبراطوريات الكبرى، وأعني بذلك مبادئ التصور المعرفي للتاريخ والتي مارسها المؤرخون المنتمون إلى المدرستين التاريخيتين الاغريقية والإسلامية، حيث صاحب الأولى حالة من التفوق العسكري والامتداد الجغرافي والحضاري لامبراطورية الاسكندرية في آسيا والرومانية بروما³، بينما نشأت الثانية من حقول التربية الإسلامية وارتبطت بتطور الحركة الفكرية والعلمية والنطاق العام للثقافة الإسلامية⁴.

ولما كان موضوع المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس منتما من حيث الجغرافيا والأسباب والنتائج إلى رقعة الخلافة الأموية ثمّ العباسية، وأحداثه ملتصقة بسياسة الخلافة وكذلك ارتداداته أيضا مرتبطة بسياساتها الطموحة في الهيمنة والتوسع، فإن ذلك قد جعل

¹ يشير عبد الله العروبي إلى هذا الغموض في الروايات وندرتها في الفترة من 81-148هـ، وخاصة فيما يتعلق بأحوال الحياة اليومية للناس والتراكيب السياسية وخطط الحرب لذلك يقول: "كل ذلك لا نجد له شيئا في المصادر العربية المكتوبة إلا ما أمكن استنباطه من سياق الأخبار الحربية نفسها، وأن ما تجرأ عليه الباحثون الغربيون من شذرات استخراجها من فرضيات لا تعدو أن تكون تخمينات بعيدة. مجمل تاريخ المغرب، ج1، ط6، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، ص140.

² منهج البحث في تاريخ الأدب، ص54.

³ يرى بوليبيوس 230-120ق م أن الامبراطورية الاسكندرية وسيادة روما قد فتحت كل العالم للبر والبحر، وأن رجال المهن الحربية والسياسية قد فتحت لهم الظروف الجديدة تسهيلات للاستثمار، ولهذا فانه محتم علينا-أي على المؤرخين-اكتساب معرفة أكثر دقة وأفضل في حقول لم يخطط لها من قبل. وسوف أحاول أن أسهم من جانب من هذه الحكمة عندما أصل إلى حد ملائم في مؤلف لهذا الفراغ من الاستقصاء، وسوف أمل أن أدرب طلابا جادين على الموضوع بطريقة مفهومة.

أرلوند تويني: الفكر التاريخي عند الاغريق، ص223.

⁴ فرانز روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، ص55.

خاصية وحدة الموضوع في المظاهر الكبرى لعصر الولاة من الوحدة الكبرى لتاريخ الخلافة الإسلامية¹، وخصوصا في عهدي الخليفين هشام بن عبد الملك الأموي (105-125هـ/724-743م) وأبي جعفر المنصور العباسي (136-158هـ/754-775م)² مما جعل الموضوع حقا ضمن التاريخ العام بمبادئه في تصورات المعرفة التاريخية وغايات مؤرخه المبطنة في جوف الصورة الأدبية لهذا التاريخ العام.

ووفق هذا التوجه استكشف عبد العزيز فيلالي انتماء موضوع بحثه إلى حقل التاريخ العالمي- الكوني- حيث ترتبط الأحداث المحلية في بلاد المغرب والأندلس في عصر الولاة وكذلك مظاهرها العامة وأزماتها بالأسباب والنتائج المنبثقة من مركز التاريخ العام أي حاضرة الخلافة بدمشق ثم بغداد وتجليات كل ذلك على الأحداث المحلية، وفي ذلك فهم للمجرى العام الذي جرى فيه ماضي عصر الولاة واستكشاف القوى الفاعلة فيه والمعاني التي ينطوي عليها على حد تعبير قسطنطين زريق³، مما يمكنه أن يضع فترة دراسته في مجراها التاريخي الصحيح⁴ والمتميز أصلا بالحركية التي تطبع السياسية¹

¹ يؤكد ذلك نص ابن عذاري المراكشي (كان حيا 712هـ/1312م) الذي أورده عبد العزيز فيلالي ونصه: أنه لما أفضى أمر بلاد المغرب إلى عبيد الله ابن الجحباب، وعد الخلفاء ومنهاهم بالكثير من الطوائف وكلف نفسه في جمعها واقتناءها أو كلفوه أكثر مما كان، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة. المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص 47.

² صارت وقائع وأحداث المغرب والأندلس بعد الغضبة التي أطلقها هشام بن عبد الملك عقب الهزائم التي مني بها الجيش الأموي في أحواز طنجة والسوس الأقصى وموقعة الأشراف 122هـ/739م بقيادة ميسرة المطغري بواد شلف من المغرب الأوسط، طابعها السياسة العسكرية المنتهجة من جانب الخلافة الأموية إلى عهد الخليفة مروان بن محمد (127-132هـ/744-749م)، وكذلك أبو جعفر المنصور العباسي لم يكن يرضيه ما يدور في الساحة المغربية والقيروان فطالب عبد الرحمن بن حبيب الفهري بمضاعفة القدر المالي الواجب دفعه إلى بيت مال المسلمين ببغداد فغضب عبد الرحمن ورد: أن إفريقية اليوم إسلامية كلها وقد انقطع السبي منها والمال فلا تطلب مني مالا، وخلع على اثرها طاعة بني العباس فكان ذلك مؤشرا على بروز مظاهر امارة الاستيلاء بالقيروان، وبذلك صارت الأسرة الفهرية نموذجا ومثالا احتذت به الأسر والقبائل المستقلة في الربوع المغربية. المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص 57، 74.

³ نحن والتاريخ، ص 140.

⁴ يرى نيقولا زيادة: "أن المؤرخ الحقيقي يجب أن يكون له اطلاع أساسي على مجرى التاريخ العام، كي يستطيع أن يضع فترته في مكانها الصحيح". إيقاع على أوتار الزمن، مجلة العربي، ط1، عدد 47، السنة 15 جانفي 2002م، الكويت، ص 14.

كونه تجنب الخوض في المظاهر الحضارية² التي هي من سمات الحضارة المادية في تباطؤها ومن هنا فإنّ تحديد عبد العزيز فيلالي لمجرى التاريخ، الذي عالج فيه موضوعه يعد عملية متقدمة تدل على تطور صناعة التأريخ عنده في سياق العقد الثامن من النصف الثاني من القرن العشرين، أين صار النزوع إلى الإحساس بضرورة فهم المجرى العام الذي جرى فيه الماضي والقوى الفاعلة فيه والمعاني التي ينطوي عليها ظاهرة عالمية شكلت الوسيلة المهمة في تحليل التاريخ، بل إنّها فتحت الباب لغير المؤرخين من جنس الفلاسفة والأدباء وعلماء اللاهوت لتعليل التاريخ وتفسيره كما هو الشأن في كتابات توينبي وبرديايف وهيديجر وسارتر وسوركين ومارتيان وكسيرر وبتر فيلد³.

وبعبارة أدق التعليل من خارج التاريخ ذاته أي من الدين والفلسفة وعلوم العربية ومظاهر الكون وعلاقة الإنسان بالطبيعة وعلاقته بالمجتمع وعلاقة المجتمعات بعضها ببعض⁴.

فهل معنى ذلك أن طريقة مجرى التاريخ واستخداماتها هي من روح البحث في تلك الفترة وأن تأثر عبد العزيز فيلالي بها يعد من روح ثقافة الكتابة في عصره؟

قد يكون ذلك من روح ثقافة العصر لكون عبد العزيز فيلالي باحثا حيويًا وموهبة لاقطة في القراءة ومفكرًا منفتحًا على تيارات عصره لذلك يكون توصله بها مسألة طبيعية، ثم إنّ ذلك من الممكن أن يحدث أيضًا خارج مؤثر ثقافة عصره لأن نصوص كتب التاريخ العالمي-الكوني- فيها بذور كافية لذلك، وحسبنا ما يمكن أن يكون قد مر منها إلى تجربته في البحث خلال ملامسته لأعمال الطبري الذي أصبغ على كتابته "تدقيق المتكلمين وطول نفسهم وما للفقهاء العالم من دقة وخبّ للنظام وما للسياسي القانوني العملي من بصيرة في الأمور السياسية"⁵.

ناهيك على مروج الذهب للمسعودي بوصفه أدق مصنف "في التفسير العالمي الحضاري للتأريخ"⁶ وكلها تعد خصائص ثقافة عالمة معينة ساعدت على توليد مجرى التاريخ بالملامسة والمماحكة.

¹ ميشال فوكو: حفريات المعرفة، ط1، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص5.

² يقول عبد العزيز فيلالي في هذا المضمرة: "وغفلت في هذه الدراسة الجانب الحضاري الذي اتسمت به هذه الفترة المبكرة من تاريخ الاسلام في الديار المغربية". المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص10.

³ قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، ص140.

⁴ قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، ص141.

⁵ فرانز روزنتال: علم التأريخ عند المسلمين، ص177.

⁶ نفسه، ص179.

2-3- المفهوم العلمي والتاريخي للمظاهر الكبرى:

لعلّ ما يلفت الانتباه عند قراءة عنوان الكتاب المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس أن ضبطه تم بطريقة تحيل إلى مفهوم علي وأخر إلى ضبط تاريخي، مما يعكس خصيصة الوعي لدى عبد العزيز فيلالي في اعطاء أهمية لصناعة عنوان جامع شامل يدل على مضمون موضوعات كتابه دون اخلال أو نقص وذلك لادراكه بأنّ صناعة العنوان مسألة تقويمية وتحليلية¹ للموضوع التاريخي من حيث النظر إلى مادته المصدرية و"تنظيم وقائعها النصية...حتى لا تبقى ذرات متناثرة لا يجمع بينها جامع ولا ينظمها ناظم وهذا التنظيم يتم ضمن كلّ حقبة على حدة ثمّ ينال الحقب جميعها لاستخلاص نواة جامعة... أو روح موجبة لها"²، وهذا لم يتأت له إلا بعد تأويله لمتون المادة المصدرية وتأمله الدقيق في المسارات الكبرى للتاريخ الإسلامي عصر الخلافة وامتداداته في الغرب الإسلامي عصر الولاة وهي عملية معرفية و حسية توصل بها إلى إكتشاف حركة أحداث عصر الولاة كأحداث تتكرر مخلفة النتائج ذاتها وهذا هو الإدراك الصحيح للمفهوم العلمي و التاريخي للمظاهر أو الظاهرة من حيث كونها "الحدث الذي يتكرر في الظروف نفسها مع النتائج نفسها"³.

و على أساس هذه القاعدة بلورت أحداث الصراع المتكررة بين القيسية واليمينية والتي كانت دوما تنتهي إلى النتائج نفسها لأن القيسية واليمينية عندما انتقلت إلى بلاد البربر والأندلس حملتا معهما أحقادهما وعصبيتهما وعداوتهما القديمة الدفينة من الجاهلية وفي مرج راهط...ولم تَشَقْ منطقة في العالم الإسلامي مثل ما شَقِيَ به بلاد المغرب والأندلس لأن الصراع كان أشد وأقصى وأعنف حيث شجع بنو أمية هذه النزاعات ودعموها بتعيينهم الولاة من القيسية تارة ومن اليمينية تارة أخرى⁴ فكانت فكانت النتائج من ذلك نفسها "حيث كان كلّ من يتولى إمارة المغرب والأندلس ينكل بالفرع الآخر وببالغ في اهانتته ومتابعته واضطهاده"⁵.

¹ بناصر البُعزاتي: في تحقيق تطور العلم (مراجعة لتحقيق بشلار لتطور الفكر العلمي ضمن أشكال التحقيق، ط1، تنسيق: محمد مفتاح، وأحمد بوحسن، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، المغرب، 1996م، ص11.

² محمد مفتاح: مقترح تحقيق جديد للثقافة المغربية ضمن أشكال التحقيق، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، المغرب، 1996م، ص168.

³ مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط17، دار الفكر، دمشق، 2019م، ص64.

⁴ المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس، ص32.

⁵ نفسه، ص32.

وعلى هذا النحو من التصور المعرفي أرخَ لهذه الظواهر الكبرى من زمن التدافع بين القيسية-عرب الشمال- واليمينية -عرب الجنوب- في العصر الجاهلي من أجل الهيمنة على التجارة والتوسع والسيادة مرورا بأساليب خلفاء بني أمية بدمشق في معالجة هذه الظاهرة وذلك من عهد معاوية بن أبي سفيان (41-60هـ/661-671م) وحكمته في اخضاع الجماعتين إلى نفوذه مرورا باخفاق الخلفاء من بعده وخصوصا في عهدي ابنه يزيد (ت105هـ/724م)، والخليفة هشام بن عبد الملك (105-125هـ/724-747م) الذي بنى سياسته على تطاحن القبائل وتنافسها، إلى رصد نفوذ اليمينية ببلاد البربر في عهد موسى بن نصير، ثم تراجعها أمام صعود القيسية في عهد ولاية محمد بن يزيد القرشي (97-99هـ/715-719م).

وعلى نحو هذه المغالبة بالتناوب تتبع عبد العزيز فيلالي مظاهر هذا الصراع والنتائج المتكررة عند هذين الحيين العربيين بالمغرب والأندلس مبينا بأنه كان فعلا يشكل المظاهر الكبرى الغالبة في عصر الولاة من عهد عبد الله بن موسى بن نصير بالمغرب (96-97هـ/715-716م) إلى غاية عهدي يوسف بن عبد الرحمن الفهري بالأندلس (129-138هـ/1) مما جعله يؤسس كتابه على مظاهر الصراع ويستأنف النتائج من كونها أحداث ووقائع مست بصفة مباشرة الحياة العامة للبربر وحركاتهم الدينية.

3-3-البدء والنهاية:

تشكل نقطة البدء في كتابة أو قراءة التاريخ العالمي-الكوني- البداية الصحيحة نحو التوصل إلى الاحاطة بتكملة المشروع أو التأكد من جو وعرض المشروع وسببه كما قرر ذلك المؤرخ الاغريقي بوليبيوس (230-120ق.م) وهو ما تنبه إليه فيلالي عبد العزيز حين استل هذه الفكرة من ملامسته لأصول التاريخ العالمي عند الطبري في تاريخ الملوك والرسل والسعودي في مروج الذهب وابن الأثير في الكامل وابن خلدون في العبر وجعل من ظاهرة "تفشي الروح العصبية بين القبائل العربية"² القيسية واليمينية نقطة البدء نحو الاحاطة بالمظاهر الكبرى لعصر الولاة في جوانب الممارسات السلبية للإدارة الأموية في بلاد المغرب³ والتي رصد بها متناقضات التماثل الديني للأمويين مع نموذج الخلافة الراشدة وما يقابله من نقيض في واقع الحكم والسياسة الأموية من خلال ممارسة ولائهم ومدى مساهمة ذلك في انتشار المذهبين الصفري والاباضي⁴ ، بين القبائل البربرية والتي كان جواها على هذه المتناقضات

¹ نفسه، ص 29 وما بعدها.

² المظاهر الكبرى في عصر الولاة ، ص 24.

³ نفسه، ص 37 وما بعدها.

⁴ نفسه، ص 49.

"بتفجير الثورات المسلحة في بلاد المغرب واستيلاء الخوارج على افريقية"¹ أو تحقيق الانسلاخ عن الخلافة الأموية بإنشاء الدولتين الصفرية المدراية بسجلماسة 141هـ/764م والاباضية الرستمية بتيمهرت 160هـ/776م.

وبنفس الخطوات في قراءة المظاهر الكبرى في عصر الولاة بالأندلس نجده يحدد نقطة البدء من جملة الأوضاع المضطربة و معلمها المتمثل في مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير سنة 97هـ/711م والتي استمرت أربعين عاما واتسمت بالتطاحن الاجتماعي بين العناصر القيسية واليمينية والمغربية² وكان من مظاهرها "ثورة القبائل المغربية في الأندلس"³ والحرب الأهلية الأولى بين الشاميين والبلديين⁴ وانتهاء بالحرب الأهلية الثانية بين المضربين واليمنيين⁵، والتي تعكس صورتها "الحال في بلاد المغرب"⁶، مما يعني أن عبد العزيز فيلالى قد جعل نقطة البدء في موضوعه من بدء الصراع بين القيسية واليمينية في المغرب، ونقطة النهاية حول ذات الصراع في الأندلس "مما جعل روايته تشمل كلا متكاملًا في ذاتها"⁷ أي عكس الكتابة التاريخية التي لا يعهد فيها المؤرخ إلى نقطتي البدء والنهاية "فإنها تفسد التشوق الذهني"⁸.

لذلك اعتبر أرلوند توينبي أن الأعمال التاريخية الخاصة بالدول أو الحكام والتي تحتوي من البداية إلى النهاية فإنّ هذا المنهج يقدم للقارئ في أكثر الأشكال صفاء وسهولة على تذكره"⁹ وهي الميزة التي اتصفت بها كتابة عبد العزيز فيلالى من حيث مراعاته للوضوح وسهولة الربط بين الرويات جاعلا من نقطة البدء تمضي قدما إلى النهاية.

4-3-الشمول والتتابع:

لما كان تاريخ عصر الولاة في المغرب والأندلس يستمد وقائعه وعناصره البشرية والسياسية ومقالاته الدينية من مناطق الشرق الإسلامي بالشام والعراق والحجاز ومصر، فإنّ مقالات الخوارج

¹ نفسه، ص 55، 78.

² نفسه، ص 108.

³ نفسه، ص 126.

⁴ نفسه، ص 136.

⁵ نفسه، ص 144.

⁶ نفسه، ص 144.

⁷ أرلوند توينبي: الفكر التاريخي عند الاغريق، ص 230.

⁸ نفسه، ص 230.

⁹ أرلوند توينبي: الفكر التاريخي عند الاغريق، ص 230، 62، 57.

الدينية وسلطتهم النقدية وكذلك مظاهر الجيوش الأموية الوافدة تحت إمرة ولاة عرب يأترون بأمر خلافة الشرق قد تحولت إلى أحداث ووقائع مرتبطة بردود أفعال البربر هي معقودة بأوضاع المجتمع في بلاد المغرب وهو ما جعل هذه الفترة على حد وصف عبد الله العروي: "تراكب فيها حتميات داخلية جوهرية وأخرى عرضية خارجية"¹.

جعلت عبد العزيز فيلالي يبدأ خطواته في هذا العصر المتشعب بتمييز النطاقات الهامة ويحدد الإجراءات الواحدة من الأخرى في نظام ثابت من التتابع اعتمد فيه الالتزام بحدود كل سنة وما تشتمل عليه من أحداث معاصرة وقعت فيها لكتما تتجه إلى الموضوع الرئيسي نفسه وحسبنا من هذا التتابع في السنة الواحدة ما ساد سنة 122هـ/739م إثر انهزام الجيوش الأموية الإفريقية والأندلسية بقيادة كل من عبد الله بن الحبحاب والي المغرب وعامله عقبة بن الحجاج السلوي من تتابع سريع للأحداث تمثلت في اتهام ابن الحبحاب القيسي، اليمينية في تلمسان ونسب إليهم تحريض ميسرة المطغري الصفري على الثورة وكان من فصولها أن قتل زعيم اليمينية موسى بن خالد التلمساني مما أعاد الصراع بين القيسية واليمينية إلى الواجهة في هذه السنة وامتد أثره إلى الأندلس أين أطاح عبد الملك بن قطن بالعامل الأموي واستولى على الأمانة في قرطبة، مما جعل الخليفة هشام بن عبد الملك يرسل قوة كبيرة على جناح السرعة بلغ عددها ثلاثين ألف مقاتل منهم عشرة آلاف من صلب بني أمية من أهل الشام يقودها كلثوم بن عياض بمساعدة بلج بن بشر ولما كانت هذه الحملة في هذه السنة تنطوي على غايات استيطانية تتمثل في مزاحمة أهل الشام لعرب الحجاز والأفارقة الذين صاروا يعرفون بالبلديين مما كان له أثر في تجدد النزاع بين الشاميين والبلديين (الحجازيين) "لولا أنه تدارك بعض الحكماء من الفريقين خطورة الموقف فعملوا على تصفية الجو ودعم الصف لمحاربة العدو المشترك المتمثل في الثوار الخوارج إلا أن ذلك لم يرأب الصدع في جبهة الأمويين مما كان له تداعيات في حسم نتيجة الصراع ضد الخوارج في السنة الموالية 123هـ/740م بمعركة قدورة على نهر سبو"².

وفي هذا التتابع للأحداث ضمن السنة الواحدة يخلو الانقطاع في الروايات والبتر من الجزئيات ولا نقص في تمام الرواية مما يجعل القارئ يتابع الأحداث في نسق مشدود بعضه إلى بعض. وهكذا جاءت طريقته في التتابع ضمن السنة الموالية أي 123هـ/740م عقب معركة قدورة³ وسنة 124هـ/741م عقب معركة الأصنام والقرن وما ساد فيهما من أحداث استمرار الصراع بين القيسية

¹ مجمل تاريخ المغرب، ج1، ص143.

² المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص ص57-171، 62.

³ المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص ص62-65.

واليمينية من جهة، ودخول البلديين-الحجازيين- إلى الأندلس على خط الصراع من جهة أخرى، فضلا على استمرار اليمينية بقيادة كلثوم بن عياض في تصفية ثورات الخوارج في افريقية والزاب وبلاد الجريد، مما أعطى لهذه الثورات صفة التزامن ومنح الجهود الأموية طول النفس والمراس في سبيل القضاء عليها ليستمر التابع في الرواية إلى مخدع الخليفة هشام بن عبد الملك في دمشق و الذي استبشر بجهود قائده حنظلة بن صفوان ونتائج القضاء على هذه الثورات، فكان فرحه بهذا الانتصار وهو وجود بأنفاسه الأخيرة على فراش الموت¹.

ومن خلال هذه النماذج تتضح الفائدة الجلية من طريقة التابع، ولعل نص المؤرخ الاغريقي بوليبيوس (230-120 ق.م) في الاشادة بأثر هذه الطريقة ونجاحتها في حصر الأحداث المتشابكة للتواريخ العالمية في قوله: "وبهذه الطريقة أجعل من المستحيل بالنسبة للدارسين الجادين أن يخطئوا المسائل التي التزم نحوها بمتابعة الأحداث التي رويت من قبل أو أن أقطع روايتي للأحداث في أية حالة معينة، فلا أترك جزءا من الأجزاء السابق ذكرها مبتورا أو ناقصا من وجهة نظر القارئ الجاد"².

لكن المسألة لا تلتفت إلى طريقة التابع من حيث كونها عملية اجرائية تستهدف رصد الحدث في كل سنة متتالية الأحداث المتعاصرة و التي وقعت فيها ،بقدر ما ينصب الاهتمام لدينا في اتجاه البحث عن الكيفية التي توصل بها عبد العزيز فيلالي في توظيف هذه الطريقة بهذه البراعة المشفوعة بنظام التابع الثابت للأحداث، لا شيء يفيد بأنه تلقى هذه الطريقة من مساره الأكاديمي عن شيوخه الاسكندرانيين بجامعة الاسكندرية بين 1973 إلى 1977م أين تلقى تكوينه العلمي والمنهجي المتين على يد عمالقة الدراسات الأندلسية والمغربية وعلى رأسهم عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي وعمر توفيق كمال وسعد زغلول ومحمد موسى الشيخ كما أسلفت سابقا، رغم أن بنية مؤلفاته لاحقا وكذلك طبيعة موضوعاتها كانت تمت بصلة مباشرة في جوانب موضوعاتها وقوالها المعرفية والمنهجية إلى آثار هؤلاء الأفاضل وأساليبهم في الكتابة التاريخية وما يزيد الأمر تأملا أنه خاض في طريقة التابع في أول تجربة له في التأليف بعد تجربته الأكاديمية تحت إشراف شيخه أحمد مختار العبادي في موضوع العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب والتي أوقف فيها عديد الأنساق من التاريخية وتصورات المعرفة، وقدم لهذا الانجاز الأكاديمي بعمل تمهيدي يخص طابع عصر الولاية في

¹ نفسه، ص ص 57-62.

² أرنولد توينبي: الفكر التاريخي عند الاغريق، ص ص 225، 226.

المغرب والأندلس¹، لكن طريقة التتابع لم تكن واضحة كون النص جاء مغرقا بالتفاصيل في مناحي الأحداث والجغرافيا والعروض الزوائية المتنوعة. بينما في المظاهر الكبرى لعصر الولاة يعتمد إلى التمييز النسبي للمظاهر الرئيسية وعرضها في نظام ثابت داخل نطاقات ثم تميزها سلفا وتكاد تكون محدودة لكتها هامة من حيث الاشارة إلى الطابع العام لرواية الأحداث.

مما يجعلنا نصرف النظر عن إمكانية استمداده لهذه الطريقة من المؤثر الاسكندراني، شفيعنا في ذلك أن المنظرين الأوربيين للمبادئ العامة في التاريخ كانوا ينظرون إلى أن طريقة التتابع تكتسب بالتعلم والادراك، وعلى رأس هؤلاء أرلوند توينبي الذي يرى بأن طريقة التتابع لا تتأتى للمؤرخ إلا إذا كان قد "تعلم الحقائق وأدركها من كتب التاريخ العام"² أي التاريخ الكوني وهذا بالضبط ما حصل مع عبد العزيز فيلالي الذي اشتغل كثيرا في أطروحته العلاقات السياسية على كتب التاريخ العام التي كتبها المؤرخون المسلمون في العصر الوسيط ولعل أهمها من المشرق كتابات كل من أبي جعفر محمد الطبري في تاريخ الرسل والملوك، والمسعودي في مروج الذهب ومن مدونات المغاربة كتاب تاريخ افريقية والمغرب للرفيق القيرواني والبيان المغرب لابن عذاري (كان حيا 712هـ/1312م) والعبر وديوان المبتدأ والخبر لعبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ/1405م) فضلا على كتب التواريخ المحلية لكبار المؤرخين الأندلسيين وأهمها كتاب المقتبس في أخبار الأندلس لأبي مروان حيان بن خلف القرطبي (ت469هـ/1076م) وموسوعة ابن بسام الشنتريني (ت543هـ/1147م) في الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، وابن الأبار محمد القضاعي (ت635هـ/1258م) في الحلة السيرة³، وهذا من خلال وقوفه على الروايات المختلفة للأحداث واخضاعها للنقد والمقارنة في سبيل توصله إلى الحقائق التي يعتمد عليها في بناء التتابع وتجسيد خاصية الانتظام في الروايات .

وإذا كانت طريقة التتابع تحقق للتاريخ شموله فلا مناص من الاعتراف بأن مجرى التاريخ العام وجاذبية نصوصه المشرقية والمغربية قد سقط بظله على تفكير عبد العزيز فيلالي في تقريره لهذا التاريخ في نسق من الوحدة الذي هو من وحدة الأمة، رغم جملة المحاذير التي قادت بعض المفكرين إلى

¹ حول هذا الفصل التمهيدي أنظر: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، ص ص 39-63.

² الفكر التاريخي عند الاغريق، ص 171.

³ أنظر نماذج من استقاء الأستاذ فيلالي لفكر التتابع والشمول من مصادر التاريخ العام الاسلامية والتي تعرف كذلك بمصادر التاريخ العالمي-الكوني- في المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص ص 30، 32، 33، 35، 36، 40، 41، 42، 43، 46، 47، 53، 60، 64، 67، 76، 78، 87، 94، 124، 138، 142، 156.

التنبه من خطر هيمنة الشمول في التاريخ الإسلامي الوسيط في احتواء التواريخ المحلية للبلدان والأمصار وفقا لمركزية شديدة العصمة تنشُد الغطاء السياسي للخلافة وبالتالي تواريخ تدور في فلك البلاط الأموي بدمشق والبلاط العباسي ببغداد مما أفرز لنا مجالاً تاريخياً ومعرفياً "لمبادرات الغير فلا نراه إلا من خلال فاتحيه الأجانب وفي صورة أرض تفتح، تستغل، تمدن وقائعها ترديد لوقائع الشرق البعيد...وسلسلة من الحوادث لا تبدأ فيها وبالتالي إذا سيرنا الوقائع كما نستقيها من الوقائع فإننا نملاً صحائفنا بأعمال الدخلاء، كما تصور ذلك المفكر المغربي عبد الله العروي¹، لذلك دعا من جانبه كذلك إلى اقتراح منظور آخر يقوم على ضرورة قيام المغاربة بالثورة على هذا التاريخ وتعويضه بمفاهيم أنثربولوجية تسمح لهم بكتابة التاريخ في اتجاه مخالف².

لكن يبدو أن العروي خشي من مآلات المفاهيم الأنثربولوجية واستخداماتها فعاد إلى الأخذ بجهود أنصار وحدة التاريخ التي هي من وحدة الأمة فرأى بأن الأحداث حول المجتمع المغربي غامضة وأن استدراك بعض النقص فيها يتطلب ربط وقائع المغرب بتطورات المشرق وأشاد من أجل ذلك بجهود جورج مارسيه والمغزى من كتابه المغرب الإسلامي والشرق الإسلامي³، والتي يكون جورج مارسيه قد استقاها أيضاً من مكنون مصادر التاريخ العالمي الإسلامية.

ليترأى لنا عبد العزيز فيلالي بحسه التاريخي النابض وإدراكه الرفيع مندمجا في النصّ الوحدوي الوسيط بطريقة أظهر من خلالها أنه أحد أنصار فكرة وحدة التاريخ من وحدة الأمة العربية الإسلامية، وأحد أشهر المؤرخين في هذا التيار الذي بزغ فجره في البلاد العربية في النصف الثاني من القرن العشرين، إثر عودة الكفاءات العربية في حقل التاريخ من الجامعات الأوروبية والأمريكية إلى بيروت وبغداد ودمشق والقاهرة، والذين أدركوا أن أي فصل في وحدة التاريخ وتقطيع للخيوط التي تربطها أو أي سد مصطنع تقيمه بين مجاريها أو أي انحراف يقف بنا دون فهمنا الصحيح للحياة البشرية وحكمنا الصادق لها"⁴.

3-5-الموازنة:

لاحظ الأستاذ عبد العزيز فيلالي أن مُعضلة البحث في عصر الولاية بالمغرب والأندلس خلال القرن الثاني للهجرة، تتمثل في غياب المصادر المعاصرة لهذه الحقبة، كما أن المصادر الوسيطة التي تطرقت إلى الموضوع تُعد بعيدة زمنياً وجغرافياً عن أحداث هذه الحقبة وأرضها وبالتالي "لا يمكن

¹ مجمل تاريخ المغرب، ج1، ص34.

² مجمل تاريخ المغرب، ج1، ص34.

³ نفسه، ص140.

⁴ قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، ص36.

الاطمئنان إليها ... لما يشوبها من غموض ومبالغات تصل إلى حد الأساطير فضلا على كونها أيضا جاءت مشحونة بميولات وقناعات حزبية ومذهبية دينية¹.

كما أدرك أن مصادر التاريخ حول الخلافتين الأموية والعباسية "كتب بتوجيه وتأثير السلاطين وبالتالي يجب أن نكون حذرين من استعمالها والاعتماد عليها"².

ناهيك على ضياع المصادر الإباضية والصفيرية المتقدمة في الموضوع الأمر الذي جعله يركن إلى طريقة الموازنة التي تبقى الرواية الشاهدة من المصادر وإن كانت فريدة أو بعيدة زمنيا عن أحداث عصر الولاة فيعتمدها وحسبنا من القرائن اعتماده على رواية كل من أبي بكر محمد بن القوطية (ت367هـ/977م) وعبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ/1405م) في وصف شخصية ميسرة المطغري زعيم الصفيرية القائلة "بالحقير والفقير والسقاء"³ لكن رؤيته كمؤرخ وبناء على نشاط ميسرة في إدارة الحرب ضد الجيوش الأمويين ودهائه في الانتصار عليهم في أحواز طنجة والسوس الأقصى وموقعة الأشرف 122هـ/739م فإنه قام ببناء شخصية أخرى لميسرة مناسبة لحجم الصراع الذي خاضه ضد خصومه الأمويين ، كزعيم للصفيرية في قوله: "كان قوي الشَّخصية وعلى جانب كبير من الذكاء والدهاء السياسي والحنكة الدبلوماسية والثقافة الواسعة ...تمكن من استقطاب القاعدة الشعبية لقبيلته وبعض القبائل المغربية الأخرى وجعلها تلتف حوله"⁴.

وهذا يُعد أقرب إلى التفسير الذي نظر به عبد الله العروي إلى عبارات المؤرخين في وصف شخصية ميسرة في قوله: "ميسرة الذي ينعتة المؤرخون فإنه كان يسقي الماء في القيروان قاصدين بذلك الإشارة إلى التقوى والورع لا إلى سفالة الأصل وحقارة المهمة..."⁵.

ومن هنا يكون التفسير المنبثق عن إعادة بناء الرواية التي قام بها عبد العزيز فيلالي والتخريج الذي أولاه العروي لعبارات المؤرخين تصب في مشكاة واحدة تتمثل في إعادة تركيب الرواية وفق طبيعة الموقف الذي ظهر به ميسرة المطغري بصرف النظر عن منظورها في تقدير هذه العبارات من الروايات المغربية والأندلسية المتأخرة.

وبالتالي فإن الموازنة عند عبد العزيز فيلالي لا تقوم على إعادة بناء الرواية وحسب ولكن أيضا في مقابلة روايات المؤرخين بعضها ببعض وحسبنا من النماذج مقابلته لرواية صاحب أخبار مجموعة

¹ المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص ص10، 11.

² نقولا زيادة: إيقاع على أوتار الزمن، ص15.

³ أنظر هامش 2، المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص53.

⁴ نفسه، ص53.

⁵ مجمل تاريخ المغرب، ج1، ص145.

برواية الطبري حول عدد الخرفان العسلية التي كان ولاية بني أمية يكلفون البربر بذبحها للحصول على الجلود العسلية التي كانت ترسل هدايا إلى الخلفاء بدمشق، فكان يذبح منها العديد للحصول على جلد واحد "ويذكر في هذا الميدان صاحب كتاب أخبار المجموعة "وكانت تذبح مائة شاة فربما لم يجد جلدًا واحدًا" أما الطبري فيرفع العدد إلى ألف شاة من أجل جلد واحد¹.

وبالتالي لم تكن الموازنة بغرض ضبط التفاوت في التعداد ولكن من أجل تأكيد حقيقة هذه الرواية ثم التأسيس لها ضمن نسق التأليف لتأخذ اشعاعها في تحديد آثارها على البربر من خلال عضدها برواية ثالثة مكملتها لصورة الأثر على لسان ابن عذارى المراكشي في قوله: "أنه لما أفضى أمر بلاد المغرب إلى عبيد الله بن الحبحاب وعد الخلفاء ومناهم بالكثير من الطرائق، وكلف نفسه في جمعها واقتنائها أو كلفوه أكثر مما كان فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة"²، ليبدولنا في النهاية أن أسلوبه في الموازنة، لا يرمي فقط إلى إعادة بناء الرواية التاريخية ولكن إلى إثباتها وتتبع حقيقتها في الأثر الذي تخلفه فيكون بدوره رواية تعضد صحة الرواية التي ما قبلها، وهذا ديدنه في الكتابة والرصد.

6-3-الغاية من التاريخ:

لا ينفصل فهم الكتابة التاريخية عند عبد العزيز فيلالي عن أثرها في حاضره "لكون مشاكل الحاضر لها أصولها في الماضي وإن دراسة التاريخ ضرورية لفهمها ومواجهتها"³، لذلك لم يتوان عن استثمار نص المظاهر الكبرى في عصر الولاية في هذا الاتجاه، حيث تبرز الغايات جلية في نُشْدانه لصورة رسوخ الإسلام في نفوس البربر في قوله: "فالمغرب الإسلامي أصبح معقلا هاما للإسلام، احتضن بذوره وتشيع أهله بقواعده حتى أضحي جزءا من كيانه وأخلاقه"⁴، وذلك دليل أقامه ليحض به فكرة الثورات البربرية التي حاول بعض المؤرخين الجهد في تركيبها في صورة الردة على الإسلام، وذلك بالبرهنة على أن ظروفها وعواملها كانت اقتصادية واجتماعية ودينية، "كانت جميعها تُعدُّ المحرك الأساسي والفعال لاندلاع شرارة أول ثورة مغربية ضد الإدارة الأموية في بلاد المغرب"⁵، وإن العوامل

¹ المظاهر الكبرى في عصر الولاية، ص 47.

² نفسه، ص 47.

³ عبد العزيز الدوري: أوراق في علم التاريخ، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص 232.

⁴ المظاهر الكبرى في عصر الولاية، ص 66.

⁵ نفسه، ص 55، 162، يذهب المؤرخون العرب كذلك إلى تقديم هذه العوامل ظروف موضوعية للثورات البربرية وعلى رأس هؤلاء المؤرخ العراقي عبد العزيز الدوري قوله: "مال بعض الولاة الأمويين إلى التعسف في معاملة المغرب ولعل هذا ما يفسر رد الفعل العنيف للبربر في ثورة ميسرة المطغري

الدينية لا تعكس رغبتهم في الانسلاخ عن الملة ولكنها استجابة لمقالات الخوارج في الشورى والحرية والنقد.

وحتىّ يقطع كلّ شك عالق بهوية ثورات الخوارج أكد على أن تصرفات ولاية بني أمية في المغرب والتجاوزات التي حصلت في حق الرعية، هي التي أدخلت بالتوازن الاجتماعي لصالح العرب على حساب البربر الذين أُعتبروا في درجة الموالي¹.

كما ذهب إلى أبعد من ذلك حين اعتبر بأنّ تعقد العلاقة بين البربر والادارة الأموية في المغرب مرده إلى جهل ولاية بني أمية بتغير ظروف بلاد المغرب وإفريقية من الناحية السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية كون الفترة التي وقعت فيها أحداث الثورات البربرية 122-155هـ/739-772م هي فترة وضعت فيها أسس الثقافة العربية الإسلامية وبدأت فيها المدارس الفكرية (فقه، تاريخ، حديث) وفيها رسمت أصول النظم والضرائب²

ومن هنا حمل بنو أمية مسؤولية تحقيق الحد الأدنى من الهدوء والطمأنينة في نفوس الرعية التي تشبعت بروح الإسلام وعرفت تعاليمه ومبادئه...وان الأمويين لم يتمكنوا من وضع أساس استقرار العلاقات المتكافئة مع سكان بلاد المغرب"³.

ثمّ إنّ إبعاده لمسألة الثورة على الدين الإسلامي من جانب البربر من المعالجة التاريخية يمثل نفيًا قاطعًا موجّهًا لتأويلات المستشرقين الذين وصفوا ثورات البربر بأنها ثورات قومية استقلالية بربرية ضد الجيش العربي ووجودهم في المنطقة"⁴.

ولما كان من أنصار وحدة التاريخ من وحدة الأمة فإنّ خطابه التاريخي جاء يصب في تأكيد صورة الموأخاة بين العرب الفاتحين والبربر من خلال "الطلائع البشرية القادمة في موجات متعاقبة مع الفتوح وبعده من بلاد المشرق والاستقرار إلى جانب اخوانهم في الدين من أهل المغرب، واقتسموا

(122هـ/740م) التي بدأت بطنجة وشملت المغرب تحت راية الخوارج . أوراق في التاريخ العربي الاسلامي، ط2، مركز الدراسات للوحدة العربية، بيروت، 2009، ص250.

¹ المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص100.

² عبد العزيز الدوري: أوراق في علم التأريخ، ص254.

³ المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص49.

⁴ المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص9: يذكر عبد العزيز فيلالي أيضا أن غاية الاستشراق كانت في تضخيم هذه الثورات للتفريق بين العنصرين المغربي والمشرقي وأن حجّتهم واهية كون الثورات التي قامت في بلاد المغرب كانت تضم عناصر مختلفة عربية ومغربية وإفريقية وسودانية وفارسية، فضلا على عدم تعمقهم في الأسباب الحقيقية والرئيسية. المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص9.

معهم الديار والممتلكات التي تركها البيزنطيون والمسيحيون من أهل المغرب وما نتج عن ذلك من اندماج وانصهار بين العنصرين المشرقي والمغربي"¹، والذي لم يكن يسمح بالاستقلال عن الخلافة أو افراز أي شعور معاد ضد المشاركة².

ومن هنا يكون عبد العزيز فيلالي قد حدد أبعاد الوحدة بين البربر في وحدة الدين ووحدة الانتماء السياسي والحضاري من حيث الارتباط بالخلافة، ومشددا على وحدة الانصهار والاندماج التي جعل منها درسا في السياسية الداخلية "وعبرة وموعظة وفوائد وخبرات ودروسا للشعوب العربية والإسلامية عامة" على حد مختصر كلامه³.

3-7-التجرد الايجابي:

يظهر عبد العزيز فيلالي في أول تجربة له في تأليف كتاب المظاهر الكبرى لعصر الولاة غير منسجم مع قوالب المدرسة الوضعانية في شق فكرة الانعزال عن الحاضر من أجل الكشف عن الماضي لأنه كان يعتبر موضوع تأليفه غير مستقل عن نزعاته وميوله في الوحدة الدينية الإسلامية لبلاد المغرب وانتمائه الحضاري إلى المشرق وهو في ذلك يصب فيما كان يعتقد جيل المؤرخين العرب في خمسينات وستينات وسبعينات القرن الماضي الذين كانوا يشددون على ضرورة "أن ينظر كل جيل إلى الماضي من خلال اعتقاداته واهتماماته وأماله"⁴ دون أن يجعل من نفسه طرفا في أحداث التاريخ وذلك بأنّ ينفذ بشعوره وفكره ومعتقده إلى أعماق العناصر البشرية الفاعلة ويستلهم منها الصورة الحقيقية⁵ وهذا بالضبط ما قام به من خلال غوصه إلى أعماق الفعاليات السياسية في الإدارة الأموية وقادة جيوشها وفي سبر نزعات القبائل القيسية واليمينية والبربرية والتفرس في طبائع قيادة الخوارج الصفرية وتطلعاتهم وكل ذلك يعد من أجل المهام التي اضطلع بها وأتاحت له قراءة نفسيات العناصر البشرية في موضوعه ورصد الظروف المحيطة بهم ومدى تأثيرهم بهذه الظروف وتأثيرهم فيها⁶.

فكان ذلك بمثابة قراءة للتاريخ النفسي لهذه العناصر فنجده يركز على تحليل سياسة اللين التي اتبعها العرب الفاتحين في التعامل مع البربر ويعتبرها أهم عامل ساعد على فتح بلاد البربر "لأن الفاتحين لم يتمكنوا من السيطرة التامة على كامل التراب المغربي، إلا بعد أن اتبعوا سياسة اللين

¹ نفسه، ص 70.

² نفسه، ص 161.

³ نفسه، ص 10.

⁴ قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، ص 159.

⁵ نفسه، ص 159-160.

⁶ نحن والتاريخ، ص 99.

والتقرب إلى الأهالي وهو السلوك الذي جاء به الإسلام وبالتالي ابتعدوا عن سياسة العنف والقوة وأشركوا أهل البلاد المفتوحة في تسيير الإدارة العربية الإسلامية الجديدة وقيادة الجيوش وإدماجهم مع إخوانهم العرب المسلمين¹.

وكذلك نجده يعلق على ظاهرة تبدل نفوس أهل المغرب بتبدل سياسة بني أمية² بعد أن كانوا منصاعين طائعين لها ما دام القاسم المشترك بينهم هو تطبيق تعاليم الدين الجديد وتوفير العدالة الاجتماعية لكن لما عبث ولاة بني أمية بهذا الشرط الاجتماعي والديني في آن واحد تبدلت نفوس البربر³.

ومن ناحية الوجه الآخر لعصر الولاة فإنه يعتبر جملة التحولات الجذرية التي طرأت في سلوك وأخلاق المجتمع الإسلامي المغربي ما هي إلا نتيجة لانتشار الإسلام وتعميم الثقافة العربية بين السكان وما صاحبه من تطور في النظرية السياسية والمذهبية دفعت بأصحابها إلى التنافس من أجل الانتشار والهيمنة والوصول إلى السلطة⁴.

وهو في ذلك يترجم منى محمد بن جعفر الطبري حول تبدل طباع أهل المغرب لما تسربت إليهم نحلة الخوارج في قوله: "فما زال أهل المغرب من اسمح أهل البلدان وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك، فلما دب إليهم أهل العراق - الخوارج - واستشاروهم قالوا: لا نقبل ذلك حتى نخبرهم - الخلفاء -"⁵.

وتظهر قراءته النفسية للشخصية الخارجية وتفرسه في طبيعة تطلعاتها من خلال رصده لحركات الخوارج ونشاطهم المذهبي والعسكري ضد ولاة بني أمية، فوصف ميسرة المطغري بأنه كان حاقدا على سياسة الولاة وكارها لتصرفاتهم مع الرعية، وهي تصرفات قائمة على غياب الفرص المتساوية بين فئات المجتمع... والممارسات الاقتصادية المستندة إلى نظامي الرق والاقطاع التي عمت مختلف مظاهر الحياة اليومية⁶.

¹ المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص 15.

² نفسه، ص 8.

³ نفسه، ص 7.

⁴ نفسه، ص 99.

⁵ نفسه، ص 54.

⁶ نفسه، ص 52.

مما يعني أن ذلك كان في عمقه صراعاً بين المفاهيم القبلية والمذهبية-للخوارج- والمبادئ الإسلامية في الحياة العامة على حد وصف عبد العزيز الدوري¹.

كما تعمق في معالجة الأسباب النفسية العميقة التي جعلت ثورات الخوارج تؤول إلى الفشل في قوله: "فقد كان ينقصها التعاون والتضامن ويعوزها الانسجام بين أغلب القبائل التي تعتنق المذهب الصفري وذلك أن معظم القبائل كانت تحارب بمفردها، ودون مساعدة بعضها بل كانت تنافس القبائل وسباقها نحو السلطة واضحاً وهو شيء لم يسمح لهم بإقامة دولة متحدة يحكمها إمام واحد تحت راية واحدة"²

وفي المقابل نتبعه يتعرض إلى الحالة النفسية الحرجة التي آل إليها عبد الله بن الحبحاب عقب انهزامه في موقعة الأشراف 122هـ/739م وانعكاسات ذلك على الوضع في الأندلس في قوله: "ولعل الشيء الذي زاد من حرج ابن الحبحاب وتوتر أعصابه تلك الأخبار التي وردت إليه من بلاد الأندلس وتفديد حدوث انقلاب عسكري ضد عامله عقبة بن الحجاج السلوي، قام به عبد الله بن قطن في قرطبة"³.

كما وصف طريقة حكم محمد بن يزيد القيسي 97-99هـ/715-717م في صورة نفسانية أخرى تعكس أسلوبه في إدارة ولاية المغرب "بالرزانة والهدوء والحكمة"⁴، و التعصب للقيسية⁵.

وفي معناه للكشف عن موقع الفضيلة في مبادئ الخوارج ودورها في تطلعهم إلى الحرية والمجتمع المثالي، إذ نادوا بأنه ليس من الضروري أن يكون الخليفة لردع الأردال ومقاومتهم والقضاء عليهم أما الصادقون على الإيمان والعقيدة والمتمسكون بالفضيلة فلا يحتاجون إلى الخليفة أو الحاكم⁶.

كما نزع إلى تصوير مظاهر التخوف وعدم الاطمئنان التي سادت بين الحزبين الصفري والإباضي عقب سيطرة ورفجومة على القيروان سنة 139هـ/765م "حيث بعث هذا الانتصار البهجة

¹ أوراق في علم التاريخ، ص254.

² المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص79.

³ نفسه،، ص58.

⁴ نفسه، ص33.

⁵ نفسه، ص33.

⁶ نفسه، ص50.

والسرور في نفوس الصفرية بالمغرب الأقصى والأوسط وزادهم حماسهم وطموحهم في تأسيس دولة خارجية صفرية في بلاد المغرب وافريقية"¹.

فكان ذلك في رأيه مدعاة للخشية من جانب الخوارج الاباضية الذين "أقلقهم ذلك الانتشار وخافوا على ما تبقى من نفوذهم على أرض افريقية وما بقي لهم من أقاليم وأصبحوا لا يطمئنون إلى توسع الصفرية"².

ومن هذه النصوص يتضح غوصه في النفسانية الجماعية والفردية للولاة والجماعات الدينية رغبة في تصور تحليلي مُقنع يأخذ فيه التحليل السيكلوجي دوره في قراءة الزوايا التاريخية.

8-3-التعليق:

لما كان التعليق جوهر التاريخ عند بوليبيوس³ وينحو بالمؤرخ إلى البحث في المواقف السابقة من أجل إدراك الأسباب التي تفسر تكوين أي سلسلة من الأحداث وتطورها⁴، ومنها استنباط القوانين المتحكمة في تسييرها⁵، فإن التعليق عند عبد العزيز فيلالي استند إلى منطلق فهم المجرى العام للمظاهر الكبرى لعصر الولاة، ورصد القوى الفاعلة فيه والتنبيه إلى منطلقاتها السياسية والمذهبية والفكرية التي تعكس المواقف السابقة وتقود إلى إدراك الأسباب وتفسير الأحداث وتطورها.

لذلك جاء بحثه في المواقف السابقة لظاهرة العصبية من بينها التي وفدت منها فرصد أسبابها التي ردها إلى في الأعم الغالب إلى السياسة التي اتبعها بعض خلفاء بني أمية مع رعية الأمصار المفتوحة والسلوك الذي انتهجوه مع القبائل العربية وتفضيل بعضها على بعض، وهي السياسة التي كانت قائمة على مبدأ محاباة العنصر العربي على حساب العناصر المسلمة الأخرى كالفرس والروم والقبط والبربر والقوط وغيرها من العناصر التي تمكن الإسلام من قلبها ووجدانها⁶.

وقد تمادى بنو أمية وولاتهم فاعتبروا هذه القوميات المسلمة في حكم الموالي⁷ ثم يغوص في البحث عن الظروف التاريخية التي تفسر تشكل مجتمع الموالي من ثمرات نظام الفتوح الذي جعل

¹ نفسه، ص 79.

² نفسه، ص 79.

³ أرلوند توينبي: الفكر التاريخي عند الاغريق، ص 185.

⁴ نفسه، ص 186.

⁵ قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، ص 135.

⁶ المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص 24.

⁷ نفسه، ص 24.

العرب طبقة عسكرية متفرغة وبالتالي فإن دخول الموالي إلى الإسلام كان دخول التابع¹ وعلى أساس ذلك تم تركيب العلاقة بين العرب والقوميات المسلمة الأخرى من خلال تحديد طبيعة الأدوار التي تؤديها تحت مسؤولية العنصر العربي، ولم يكن ذلك يتعلق بالحكم والسياسة والأمور العسكرية وإنما امتد مفهومها إلى النظام الاجتماعي بين العرب والموالي وعلى أساس ذلك وزعت الأدوار في التاريخ فتصدر العرب الهرم الاجتماعي وتربعوا على الحكم وعرش السياسية².

وبالتالي تهض هذه المواقف السابقة المفسرة لكل الأحداث وتطورها في بلاد المغرب خلال مرحلة عصر الولاة، بداية من هيمنة القبائل والعشائر العربية على نظام القطائع بالمغرب وتحولها من نظام التقشف والشورى إلى نظام سياسي واقتصادي وراثي ارستقراطي اعتمد عليه الأمويون في تثبيت حكمهم وأضحى بدوره مركز قوة خطير في الدولة³.

ثم يتابع البحث في سلسلة هذه الأحداث وامتداداتها فيعود إلى رصد تكوين ظاهرة هذه القوة الاجتماعية الخطيرة إلى عهد الخليفة عثمان بن عفان 23-35هـ/643-655م ثم أخذ في تتبع تطورهما إلى أن جرها إلى مخدع الخوارج ومواقفهم المناهضة والناقدة لسياسة التمييز على لسان أحدهم: "ثم أخذ في الله الذي أفاء عليهم -أي المسلمين- فقسمه بين فساق قريش ومجان العرب" ومن مرحلة الخلفية عثمان بن عفان غاص عبد العزيز فيلالي في المواقف السابقة التي تخص سياسة التمييز بين العرب والقوميات المسلمة فبعد أن صار جلياً جنوح سلطة المدينة في عهد عثمان بن عفان نحو التيار القبلي تكشف الوضع في خضم الفتنة الكبرى فكان معاوية يمثل التيار القبلي بينما يمثل أنصار علي بن أبي طالب التيار الإسلامي ليمتد هذا التمايز في عهد خلفاء بني أمية إلى القبائل العربية نفسها أي إلى عرب الشمال القيسية وعرب الجنوب اليمينية⁴.

فكان من شأن ذلك أن أسس الأمويون دولتهم على متناقضات حين عربيين متصارعين عداوتهما ضاربة جذورها في القدم وناصرها المواقف المعارض-الخوارج-العداء كون مذاهبهم وأرائهم في السياسة مناوئة للخلافة الأموية.

فقد أنكروا على قريش استئثارهم بالخلافة والسيادة وأباحوا الخلافة في بداية الأمر لكل عربي مسلم تتوفر فيه شروط الإمامة ثم تطورت فيما بعد أفكارهم عند ما دخلت عناصر أخرى

¹ نفسه، ص 24.

² نفسه، ص 25.

³ نفسه، ص 26.

⁴ المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص 25-29.

غير عربية إلى حزبهم فاعتبروا الخلافة حقا لكل مسلم، مهما كان وضعه الاجتماعي والاقتصادي سواء أكان من أقطاب قريش أو من أدنى الأحياء¹.

لذلك اختار الخوارج الوقت المناسب من حيث اشتغال الدولة الأموية بالخصومات بين اليمانية والقيسية وكذلك المنازعات بين الولاة وتغلغلوا داخل القبائل المغربية ذات الوزن الكبير والانتشار الواسع وهي قبائل غمارة وبرغواطة ومكناسة ومطغرة وزناتة وهوارة².

ومهذا البحث في المواقف السابقة يكون عبد العزيز فيلالي قد وضع القارئ في المجري العام الذي جرى فيه ماضي القوي الفاعلة في تاريخ عصر الولاة بالمغرب والأندلس بحيث تصبح سلسلة هذا التاريخ وتطوراتها تفسر من حيث أسبابها ومنطلقاتها ونجاحاتها أو إخفاقها على ضوء إدراك هذا المجري.

فلا يمكن فهم حقيقة سياسة الولاة إلا بالعودة إلى جذور الصراع القيسي اليماني، كما لا نستوعب ثورات الخوارج في بلاد المغرب دون دراية بمنطلقاتهم في الإيمان والعقيدة والتي تشكل أساس فهم خصوصية النزوع إلى الحرية والمجتمع المثالي، وبالتالي تحديد نوع وطبيعة سياستهم اتجاه ولاة بني أمية في المغرب وخلفائهم بدمشق.

وهذا ما ذهب إليه أيضا عبد الله العروي في قوله: "عندما نبحت عن أسباب ثورة سكان المغرب يجب أن نميز بين البواعث العميقة والأسباب التي أدت إلى ترديد مقالات الخوارج هذه مرتبطة بأحداث الشرق وتلك معقودة بأوضاع مجتمعه، تتراكب في هذه الفترة من تاريخ المغرب حتميات داخلية جوهرية وأخرى عرضية خارجية³.

وإذا كان عبد العزيز فيلالي قد أعطى صورة عميقة وواضحة في وقوفه على المواقف السابقة التي علل بها سياسة الولاة والصراع بين القيسية واليمانية وتجليات كل ذلك على واقع بلاد ومجتمع المغرب خلال عصر الولاة، فإنه في شق ثورات الخوارج ونطاقها الجغرافي أحجم عن تقديم المواقف السابقة لهذه الظاهرة-الثورة- في هذه النطاقات وخصوصا على محور تلمسان طنجة، والتي كان من الممكن أن يصلها التعليل في مستوى لماذا حدثت هذه الثورات في هذه النطاقات وخصوصا على محور تلمسان طنجة؟ لنجد الجواب في المسار التاريخي الموهل في القدم حول الثورات البربرية كان لها الصدى في شيوخ البربر الخوارج في عزمهم على إحياء إمارات مغرب الوسط⁴ التي يرجع تاريخ

¹ نفسه، ص 50.

² نفسه، ص 51.

³ مجمل تاريخ المغرب، ج 1، ص 143.

⁴ المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص 146.

ثوراتها في الغالب إلى نهاية القرن الخامس الميلادي وبداية القرن السادس في سياق دحرهم للوندال وثوراتهم على البيزنطيين بعد 533م¹.

وظالما أننا لا يمكن أن ننقض التاريخ نقضا تاما لأن القوى المتراكمة فيه تعود فتحدث فعلها مهما اشتدت ثورتنا عليها أو إنكارنا لها²، أنها باختصار سنة التماسك والترابط والتراكم المعيدة للظواهر حول أوضاع صور متشابهة على تربة واحدة لكن في أزمنة متباعدة في سنة التطور التاريخي أطلق عليه المؤرخ العربي نقولا زيادة مصطلح "الجيولوجيا الاجتماعية" وحقاها "أن الشعب الذي وجد في مكان وكانت له مآثر وإنجازات لا تذهب مع الريح لمجرد أن يهزم هذا الشعب ويستولي شعب آخر على بلاده، إن الكثير من الانجازات يظل في المجتمع الجديد وينتقل إليه اجتماعيا كما تنتقل شعيرات النبات من طبقة الأرض إلى أخرى"³.

ومما يفيد ادراك عبد العزيز فيلالي لمضمون نظرية الجيولوجيا الاجتماعية واستمرارها كامنة في مراحل التاريخ السابقة، تلك الصور الاجتماعية التي رسمها الميسرة المطغري وخليفته خالد بن حميد الزناتي، من حيث مستواهما الثقافي والديني ووعيمهما السياسي وحنكتهما في الحرب وركب من عمق الماضي السحيق للبيئة الثورية التي عاشا فيها بقوله: وكل ذلك لا يمكن أن يكون وليد ظرف الثورات التي قاموا بها 124-122هـ بقدر ما تفسر على ضوء المواقف السابقة لهؤلاء والتي حصرها في الاستعدادات القبلية عند القادة البرابرة وقبائل مغرب الوسط⁴، والتي اندمجت بصورة تلقائية في الثورات أي في مجراها الطبيعي في التصرف مع الوافد المتسلط، ولم يشأ أن ينطلق من فرضيات تفسد التعليل كون الطريقة التي كتب بها في المظاهر الكبرى في عصر الولاة تستمد التعليل من الحقائق التي توصل بها من الروايات خلال عمليات التحقيق والمقارنة، بينما المواقف السابقة هي المنتج للتصور الواعي لمجرى التاريخ ذلك العقل الطبيعي والمناسب لإجراءات التعليل، كان قد استقاه من ملامسته للأصول.

أما من حيث كون تعليلاته تؤسس للغايات التي يندفع التاريخ إليها فهي موضوع آخر منبثق من ميولاته وتوجهاته الفكرية والدينية والقومية والوطنية والإنسانية، وذلك إطاره الغاية والتاريخ كمنحى مميز في كتاباته الوسيطية والحديثة والمعاصرة.

خاتمة:

¹ نفسه، ص ص 112-115.

² قسطنطين زريق، ص 184.

³ إيقاع على أوتار الزمن، ص 15.

⁴ المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص ص 52، 53.

ومن خلال ما سبق تتبعه في تجربة توظيف المبادئ العامة في كتابة التاريخ عند عبد العزيز فيلالي يتضح أن هذه الأرضية المتينة التي استند إليها في كتابة موضوعات تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، هي من الطرق التي لا يمكن التوصل بها من بوابة التواريخ الجزئية أو التاريخ المفتت، وإنما تبقى طريقة المتقنين لمبادئ الشمول في التاريخ والممتنعة على مؤرخ الاختصاص في عصرنا كونها صناعة هي نتيجة تطور طويل المدى أخذ الإنسان يعي ويدرك كيف تتركب ماضيه كما حصل فعلا. لذلك اعتمدها عبد العزيز فيلالي في كتابة التواريخ الوسيطة بمنطوق مؤرخها، وكذلك اتخذها أرضية صلبة وضع فوقها سائر الأبنية المناهجية والمعرفية التي وظفها في أصناف كتاباته الأخرى والمتمثلة في: تجربته التاريخانية القوية في التحقيق والنقد، و أسسه المناهجية في الأدب التاريخي وسياقاته المعرفية في توظيف الفلسفة والعلوم المفسرة للتاريخ، وكذلك أنساقه في الثقافة التاريخية من حيث مبادئها وغاياتها، وكلها مشارب من مشروع علمي واسع يُستنبط منه المثل في رسم أساسيات الكتابة التاريخية الوسيطة في الجزائر في صورتها العلمية اللائقة بها.